

جمال الغيلاني

دفاعات التدوين : الدفاع الثالث

# رشحات الحمراء



دار النور



رَشَاحَاتُ الْحَمْرَاءِ

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

بيعت بحقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري

رابعة العدوية - مدينة نصر - ص. ب. ٣٣ البانوراما

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email·dar@shorouk.com

جَمَالَ الْغَيْلَانِي

دفاتر التدوين : دفتر الثالث

رَشَحَاتُ الْحَمْرَاءِ

دار الشروق



## مصدرها

من أعلى تجيء . فجأة . . تظهر فوق السطح حيث أعواد البوص وأقراص الجلة، والقذور الفارغة . سلا لم بدون حاجز، تصل ما بين الفناء والفوق، البيوت متجاورة متصلة، كل منها يفضى إلى الآخر عبر حواجز واطئة من الطوب اللبن، كل بيوت جهينة مبنية منه، بتراصه وتمامه، عدا منزل الحاج صالح العمدة، ومنزل آل الضبع، فمن الحجر، بيوت الأفراد المتتمين إلى عائلة واحدة متضامة، تبدأ فاصلة أفسح، تليها منازل عائلة أخرى .

هنا عائلة باشا . إحدى العائلات الرئيسية بربع حسام الدين، أحد أربعة أقسام تتكون منها جهينة، ربع أبو خبر، ربع بنى رماد، تقف جهينة عند الحد الغربى للأرض المزروعة، قبل الوصول إلى الجبانة يمكن للمرء أن يضع قدماً بين الخضرة والصفرة . بين الأرض المزروعة والصحراء الممتدة إلى موضع مغيب الشمس، يحد الأفق جبل صخرى وعرة، مأوى الذئب والضباع والأنس والجن والمطاريد والمقابر التى تحرسها الأرصاد حتى لا يمس أحد محتوياتها من توابيت وأقدمين محمليين إلى اللاشئ، كأنهم رحلوا بالأمس مع أنهم يرقدون منذ آلاف السنين . لا يجرؤ على الدخول إليهم إلا من أوتى

القدرة على فك تلك الأرصاد وإبطال عملها . أما الجاهل فرجما يلقي مصيراً لم يخطر له على بال ، كأن يتحول إلى حجر ، أو يصبح حيواناً نصفه إنسان والنصف الآخر جماد أو حيوان فلا يجرؤ على العودة إلى أهله وصحبه أبداً ، تتبدل الصورة ، وتختلف الكينونة البشرية ، لهذا لم يجرؤ معظم الناس على المغادرة واقتحام المراقد الأبدية والكهوف التي لا تفصح عن مخارجها ، إذ لم يعد منها أحد ، نفر محدود تجاسر وتجاوز ، بعضهم لم يعد ، وآخرون رجعوا مغايرين للأحوال التي مضوا عليها ، حتى أن بعضهم مثل عبثاً على ناسه ، الجبل الغربي قريب ، بعيد . مائل للرؤية ، غير متاح إلا لمن تتردد سيرتهم على الألسنة ، سواء كانوا من خفاف العقول ، أو المغامرين ، أو المطاريد ، الذين لم يجسدوا مكاناً يأويهم إلا تلك المغسارات ، والدروب المنفية ، النائية عن كل طارق .

تجىء الحمراء من الغرب ، تنتقل عبر الأسطح بسهولة ، لم أعرف بالضبط أى بيت من عائلة باشا يأويها ، باشا جدى لأمى ، اسم وليس لقباً ، فيما بعد كان صحبى يتطلعون بدهشة كلما ذكرت اسمه .

«محمد على باشا» .

«معقول جندك باشا ١٩» .

أسارع موضعاً .

«خالى تاجر غلال ، هذا اسم جده . .» .

فى بيت خالى خرجت إلى الدنيا . تنسمت أول أنفاسى وأرسلت



الصرخة الأولى ، نصل إليه أول شهور الصيف ، غمضى حوالى أربعة شهور ، كافة من عرفتهم فى البيت دخلوا عبر الباب ، عداها ، لم تأت إلا من أعلى ، من فوق ، من سطح إلى آخر تعبر . هكذا يمكن للنساء أن يتحركن سافرات بعيدا عن الطريق . لو خرجت إحداهن لابد أن ترتدى «الشقة» ، رداء من القطن الأسود ، السميك ، يسدل على الثياب كافة ، يغطى الرأس . وتمسك اليد بطرفه حتى لا تتاح فرصة إلا للنظر من خلال فتحة صغيرة ، يمشين بالقرب من الجدران ، بعيداً عن نهر الطريق ، فضفاض ، لا يتيح أى إمكانية لبروز الاستدارات أو الملامح . بعكس الملاءة اللف التى أعرفها فى مصر ، والتى تفصح أكثر مما تخفى ، خاصة عند اللواتى يجدن حبكتها ويضبطن إيقاع مشيهن على ملامستها لهن .

ملاءة لف فى جهينة تعنى فضيحة وقتل . عندما سافر قريب لنا إلى مصر وفتح الله عليه ، بدأ تجارة غلال موفقة فى سوق أثر النبى ، الذى يستقبل المراكب القادمة من الجنوب بحمولاتها من فول وعدس ولوبيا وسمسم وقمح وشعير وأوان فخارية من قنا ونجح حمادى ، بعد أن تيسر حاله أقدم على أمرين ، أولهما : الحج إلى بيت الله الحرام . هكذا اقترن اسمه بلقب الحاج فى السوق ، ثانيهما : زواجه واحدة من بنات مصر ، زوجته الأولى أم عياله فى جهينة ، عاشت وماتت بها ، الأولى فوزية والثانية سميرة ، ابنة كبابجى معروف من المذبح . عندما جاء بها للمرة الأولى ، جرى اسمها على لسان النسوة بالدهشة والاستنكار . ليس بسبب دمامة . إذ كانت بيضاء ، لينة القوام ، رقيقة الصوت ، وليس بسبب ترخصها أو قلة أصلها ، كانت وقورة ، متزنة ،

مهذبة، غير متعالية، تقضى حاجتها بنفسها، أبوها رجل طيب كما يؤكد كل من نزل إلى مصر وعرفه. إنما . . لارتدائها ملاءة لف .

الانتقال عبر الأسطح لا يقتضى ارتداء «الشقة» كما أنه غير مستحب لجميع النساء، يلجأن إليه من هن دون البلوغ، أو إذا كان العبور قريبا من بيت الزوج إلى دار الأب، أو الفقيرات ممن اعتدن الخدمة، تحيي إحداهن للمساعدة فى الخبيز، مقابل ذلك تعود برغيفين أو ثلاثة. إضافة إلى ما تيسر، تلقيمة سكر وشاي، هدمة قديمة فاضت عن الحاجة، ماعون فارغ، تساعد فى الإعداد لحفل عرس، أو تجهيز مسافر إلى بحرى بهدايا من البلدة للأقارب والأحباب، أرغفة من العيش الشمسى أو بتاو، بلح مجفف، ثمار دوم، حمام مذبوح، بط، أوز، ملوخية ناشفة. يضع هذا كله فى قفة من الخوص تغطى بجلباب قديم، يعود من هناك بالسكر، الصابون، قماش للمحريم والأولاد، عقود خرز ملون، مناديل، عصائب ملونة، وقمصان داخلية شفافة تلتقاها المرأة خجلة، متدلة. تخفيها بسرعة. تشارك فى إعداد وليمة لضيوف أعماء، أو فى تنظيف البيت قبل المواسم والأعياد.

إلى هؤلاء تنتمى «الحمراء» وتنتسب. أحد فقراء العائلة تزوجها من قرية نزة المجاورة، تشتهر بجمال نسائها، بياض بشرتهن، واخضرار عيونهن وسماقة قوامهن، معظمهن يتمين إلى عائلات مدقعة، لا يعرف أفرادها مذاق اللحم إلا من العيد إلى العيد، ومع ذلك رزقهن الله بنضارة وافرة، الدم يكاد أن يفظ من وجناتهن،

وظلعهن مبهر، ملفت، معظم زيجاتهن من فقراء مثلهن أو مثلهم .  
ينظر القوم إليهم فى الكفور والنجوع والقرى المجاورة من مسافة ،  
وثمة من يقول بانحدارهم من أجانب جاءوا إلى الناحية منفيين من  
بلاد بعيدة ، وكان لسانهم غريبا فأتقنوا العربية بمضى المدة ودخلوا دين  
الإسلام . مثل هذه الأقاويل تزيد الثغرة وتبقى الفجوة وتعمق النفرة .  
ولأنها تنحدر منهن لم تشبه أى من اللواتى اعتدتهن . لا فى الحضور  
ولا الملامح ولا الطلعة ، بعد خروج خالى إلى السوق ، ومضى أبى  
إلى زيارة المعارف . عندما يكتمل إنفراد النسوة وأطفالهن بالدار ،  
تظهر ، لذلك اقترنت الساعة ما بين التاسعة والعاشر بها . يؤطرها  
هذا الوقت ، لا أراها فى لحظة تسبقه أو أخرى تليه ، وإذ تبدو .  
يلزمها الزمن ، فلا يتقدم ولا يتأخر . هكذا تنبئني وقفتها ، فوق  
السطح عندما تبزغ عبر فراغه ، وتقف لحظات لتنطق التحية ،  
ولتطلب الإذن من ناحية أخرى ، فربما لم يكن الوقت ملائما  
لقدومها ، غير أننى لم أشهد ردتها قط .

«تعالى يا حمراء . . .» .

عندئذ تقدم ، تنزل درجة ، درجة ، مبتسمة ، تسطح فارهة ، هى  
لاغيسرها التى تجىء من أعلى ، تدخل إلى قلب المحل بدون طرق  
الباب ، تتجه مباشرة إلى حيث الحاجة إليها ، أمام الفرن إذا كان الخبز  
بدأ ، أو تقعد إلى الماجور للعجين ، أو إلى الرحاية لتطحن الذرة أو  
القمح ، أو لتشطف الغسيل ، إلى هنا . إلى هناك . دائما مبتسمة ،  
متطلعة ، دائما ملبية ، وإليها يتجه نحوى ، منها أكون .

لا أقبل ، هي الآتية عندي باستمرار ، قادمة من عل ، هي لا غير  
التي تجيء عبر السطح ، جدتي لا تستخدمه ، وبما لتقدمها في العمر .  
امرأة خالي الشابة لا تذهب أبعد من البيت المجاور ، حيث بيت أبيها ،  
أما الحمراء فتجيء من بعيد . من نقطة لا أعرف أين تقع . لا يمكنني  
تحديد لها ، لم أعينها إذ إنني لم أصحبها خلال العودة قط . لم أعرف  
عدد الدور التي يجب أن تتخطى أسطحها حتى تصل إلينا ، صباحية  
طلتها . لا أراها في المساء أو عند دخول الليل مع أنها مرة أمضت ليلة  
كاملة معنا .

على الجسر الممتد خارج جهينة ، الذي يحدد زمامها من الشرق .  
ظهر جمل قادمًا من الشمال حيث الطليحات وطهطا قاصداً الجنوب  
باتجاه العمور ، المدمر ، الهلة ، حتى بندر سوهاج . جمل لكنه لم يكن  
مثل الجمال التي اعتاد الناس رؤيتها ، وغير ضخامة الحمولة من قصب  
السكر إلا أنه يمشى بطيئًا ، متسقًا ، رشيقًا ، قوائمه واثقة . وأخفافه  
راسخة ، له مضي ملفت ، موحى .

على الجسر عشة من البوص يقعد أمامها بعض العابرين ، أو من  
يريدون قضاء بعض الوقت بعيدا عن البلدة وشوارعها المغلقة ،  
ورحباتها المحدودة بالأبواب المطلة عليها . الجسر ينبت بقدم غير  
المألوف إذ إنه جزء من طريق ترابي ممتد ، منه تظهر «الحلزونة» الحافلة  
التي تربط بندر سوهاج بمدينة طهطا المركز مرة واحدة يوميًا ، تجيء  
مشيرة الغبار ، تميل تحت الثقل المكتظ داخلها ، صاحب العشة غجري  
تخلف عن قومه ، لسبب ما بقى وحيدًا . ينام في العشة ويعد داخلها

الشاي والجوزة ، ويتحدث إلى العابرين أو أبناء البلدة الذين يقصدون قعدته ويصفون إلى ما يرويه عن بلاد بعيدة ، وأمور غريبة ، أحد من اعتادوا الجلوس عنده عمر الطحان ، يعمل فى الوابور الذى يمتلكه الشيخ محمود أحمد ، يقوم بتفريغ أجولة القمح داخل الفوهة الضخمة ، ويصلح الماكينة إذا أصابها عطب . يوقفها ويشغلها ، دائما يظهر وعليه ذرات الدقيق البيضاء ، ورغم اعتياد الناس عليه إلا أنهم ينسبون إليه فظاظة ، ويصفون عينه بالوحشة ، له سوابق مجرمة ، الويل لو حط عينه فى دقيق مطحون ، أو رمى بها صبيا صغيرا أو صبيا ، بمجرد أن رأى الجمل مقبلا إلا وصاح .

«يا . . . عمرى ما شفت جمل مثله» .

لم يذكر اسم الله ، ولم يصلى على أفضل الخلق . صمت الجالسون . لم يعلقوا . . بما فيهم صاحب العشة الحلبي ، مجهول الأصل والفصل ، بعد أن تجاوز الجمل العشة بثلاث أو أربع خطوات تباطأ وصدر عنه شخشة وحشجة .

«الحقونى . . .» .

لطم صاحبه ، أحد الجالسين أخرج المطواة التى يقطع بها فصوص الأفيون قبل أن يزنها فى الميزان الصغير ، الدقيق ، أدرك بسرعة ما يحدث ، قبل أن ينخ الجمل على قائميه الأماميين عاجله ، غج المطواة من أسفل صدره بقوة ، قاصدا قلبه ، نزع الدم مكونا بركة صغيرة ، أرسلوا إلى حميد الجزار ، جاء من بيته بعد أن كان يتأهب للرقاد ، بسرعة بدأ العمل ، أدار صاحب الجمل ظهره . قعمز جالسا ، مسندا رأسه إلى راحتيه ، مرددا «يا كسرى . . . يا كسرى . . .» .

بسرعة فُكت الحمولة . بدأ تقطيع الجمل وسلخه ، صار الشراء ، بالكوم ، لا يدري أحد كيف سرت الأخبار في ربيع حسام الدين ، الأقرب إلى موضع سقوط الجمل وذبحه ، جاء خالي بقطع اللحم الطازجة . قال إنها من أفضل الأجزاء ، الدنيا حر ، لذلك كان لابد من طهي اللحم في نفس الليلة . سرعان ما بدأ السلق والشوى . . . علقته الرائحة في الفراغ ، عبق على غير انتظار نادرا ما يفوح إلا من السنة إلى السنة ، في عيد الأضحى ، قيل إن الجمل بيع بثمان بخس ، أقل من سعر سنخل صغير ، البعض لم يدفع نقوداً ، رمى في حجر صاحبه قمع سكر أحمر ، أو قدح غلال . أو سيجارتين ، بدا الرجل ذاهلاً . لم يرد على أى إنسان ، كل ما تلفظ به .

«يا كسرى . . . يا كسرى . . .»

بسبب الموقف الطارئ ظهرت الحمراء ، لم يستدعها أحد ، لا بد أنها قدرت ، جاءت في الوقت المناسب ، وعندما عادت إلى السطح بعد منتصف الليل كانت تمشى حذرة ، ليس بسبب العتمة فقط ، إنما لحمولة يديها ، قدر الفخار الملىء بمرق ترقد فيه هبر لحم طازج أجمع كل من ذاقه أنه لم يعرف مثيلاً له . فلحم الجمال صغيرة السن نادر . يسمع به القوم ، ولا يقدر عليه إلا الأثرياء المتمكنين ، موصوف ، مجرب ، واسمه بعروور . علقته الرائحة الكثيفة بالفراغ وبالأيام التالية . السنوات التي تتوالى ، ما بقى عندي ، خصوصيتها ، وقدم الحمراء ليلاً ، في مدة لا سابقة لها ولا عقب تبعها ، لذلك لم يرتبط هذا التوقيت بها لأنه استثناء ، القاعدة صباحية .

سواء منخفضة حتى لتطال جدران البيوت ، منغلقة على لحظة تتبعها . غير مفتوحة على ما عداها ، تشملها في كافة أوضاعها التي تردني وتبدولي . قاعدة أمام الفرن ، إلى ماجور العجين ، واقفة فوق ، طالعة الدرج ، تفرغ قمحا من الصومعة ، أو تخص قربة الزبدة ، أو ترص الأربعة في القفة التي ستصحبنا أو نصحبها إلى مصر . ما بين السطح والفناء ، الفناء حيث مكمنى . موقعى الذى أسدد منه بصرى الأول .

الفناء ، الفرن إلى ركنه الأيمن ، يليها على مسافة خطوة الصومعة التى تحفظ الغلال وثمار الدوم الجافة ، فى مواجهة الداخل من الباب غرفتان متجاورتان للنوم داخلهما شتاء وأمامهما صيفا ، فى الثانية من اليمين ، ولدت ، إلى يمين الداخل مباشرة ، تحت السقيفة حجرة عتبتها مرتفعة بالنسبة إلى الحجرات الأخرى ، مخزن لأجولة القمح والذرة والبقول ، فوق ، غرفة مواجهة للسطح الذى تظهر فوقه الحمراء ، يودى إليها سلم مقابل ، غير مطروق إلا لمن يقصد المكنون ، لا أرى الحمراء فوقه ، لا أراه ، لم يقترن بها . من خلال كوة صغيرة يمكن للواقف وراء الجدار أن يرى الوجه ، ولا يمكن للمار فى الخارج أن يلمح منه ولو خصلة شعر .

من السطح المقابل ، من الغرب تحبىء ، تهل على أيامى تلك . بزوغها مفاجئ ، نزولها السلم سريع ، عيناي تلازمها منذ ظهورها وحتى غيابها ، تكف عن أى شهيق أو زفير لو تطلعت ناحيتى بغتة مبتسمة . أتعمد الجهامة ، غير أن الرضا يغمرنى إذ تقبل ناحيتى ،

عندما تلتفت إلى تبتسم، أكشف اللامبالاة، غير أنني لا أكف عن اختلاس النظر إلى وجهها، مركز سطوع، ضياؤها داخلي ممتد، أمضيت أكثر من نصف قرن أكتشفها باستمرار في كل مرحلة. ومع كل حقبة يتكشف لي جديد. لو قدر لي السعى قدر ما عشته حتى الآن. أي ستة وخمسون أخرى... وهذا محال... أثق من تجدد سائر ما يتعلق بها رغم التباعد القائم والجهل بمصيرها. غير أن هذا حديث سابق لأوانه.

إذ تبسط يدها نحوي، تبتسم لي. أدخل في محيط عطرها، عبيرها خاص، أول فواح أنثوى ينفذ إليّ، لم أقرن به أي نسيم آخر، تماما مثل نزوعي إليها، أيضا لم يكن له سابقة عندي، فليس قبله قبل، ليس له مرجع، لأنها مصدر وقياس لا يمكنني مقارنتها بغيره، إنها جوهر القرين، أول خفقة. مفتتح المادة كلها. رغم طرحتها يميل شعرها الناعم، السباسب الطويل، إلى صفرة مختلطة بحمرة مع سواد مؤكد، فإذا رأيت شقراء قلت مثلها، وإذا وقعت عيني على فاحمة السواد نسبتها إليها، فكانها لون الألوان.

جلابيبها طويلة، مشجرة، تنسدل على قوامها الفاره، طويل بغير إفراط، تبدو نحيلة لكنني استعدت انحناءاتها عندما قابلت من تنتمي إليها في موضع متقدم، وزمن بعيد، فرأيتها عامرة. عيناها تميلان إلى اخضراء، لعلهما أول حدقتين تبشان اللون الأخضر بانتظام بثبات مريح اسمها «الحمراء».

الحمراء راحت، الحمراء جاءت، الحمراء طبخت، الحمراء غسلت، الحمراء نفسها طيب، يا حمراء تعالي، يا حمراء روحى.



اسم أو صفة، أنتبه الآن أثناء تدويني هذا إلى الأثر الصادر عنها باللون الأحمر، وجهها يرشح به، فرادة لونها وحتى ابتسامتها صوتها، كل ما ينتمى إليها يؤدي إلى الشفق، إلى تدرجات وأطياف نابعة من حريق كوني بعيد، لا يهمد إلا ليبدأ، ولا يخمد إلا ليندلع أواره، حمرتها إشارة إليه ورشحة منه.

لم أفصح عما تردد عندي، خشية أن تلمح أمي وجدتي وامرأة خالي. بالذات أمي التي كنت أخفض صوتي حتى ألزم ما تنبه عليّ بضرورة التقيده، لا أقدم على فعل إلا ما يرضيها.

ألزم الركن المواجه للفرن، يكفيني النظر إلى الحمراء، متابعة حركتها التي تضيء على البيت أنسا وتغمره بما يكفيني ولا يدفعني إلى الخروج سعيا للعب مع أبناء الناحية من أقراني في الرحبة. أمي حذرتني من تجاوزها إلى الطريق الواصل بين المشرق والغرب، حارتنا القاهرية سد لا تؤدي إلى أخرى، مدخلها واحد، لكن الرحبة تتصل من الناحيتين بطريقين، الأول: رئيسي يؤدي إلى الجبانة غربا، وإلى النخيل شرقا ثم الجسر، والثاني: فرعي، أضيق يفضي إلى حارة النصاري، أحيانا يظهر الشجر أو كما يسميهم البعض «الحلب»، يسرقون الأطفال، لا مقر لهم ولا مأوى ثابت، أيام الأسواق بالذات تحوشني أمي. يتوافد غرباء ويدخل إلى الربيع من ليس منه، إذا صحبت جدتي فلا تفارق يدها يدي، لكم نقت إلى مصاحبتهما، لكن بعد ظهور الحمراء عندي صرت أتوقعها، عند رقادى أتعجل انقضاء الليل، ولحیظات بدء إغفائي ألمحها قريبة مني، أتوق إلى زيارتها

مناماتي ، طوال فترات غيابها أثق من رؤيتها لى . إنها قريبة ، فى مكان لا يمكننى تحديده أو تعيينه ، تنظرنى ، تتابعنى ، لذلك يجب الالتزام ، هذا ما صرت إليه فيما بعد عند وقوعى أسير هوى أو بدء جذبتي ، مهما ابتعدت أو قربت ، عرفت من يقمن فى ديار نائية . بلاد غير بلادى ، وغير ذلك إذا مشيت فى مدينتى أو حتى داخل بيتى أراعى ولا أفرط . أحرص . لا يبدر منى إلا ما أتصور أنه سيلفت نظرها . ولا أبدى إلا ما أرضى عنه ، ثمة من ترقبني من موضع ما ، من توقيت معلوم ، تقتفيان أثرى وترقبان كافة ما يصدر عنى .

إلى الحمراء تمت أصولى كافة . إذ تداعبني أخفض صوتى ، إذ تولى عنى أتعلق بها . كأن الحضور كله مرتبط بها . أقتفى أثرها عند صعودها السلم ، وإذ تختفى يبدأ هجاجى ، أو شك على البكاء لأبقيها لحظات فى مدارى ، لكننى لا أفصح ، ألزم ، أستدعيها بمخيلتى ، يصير حضورها عندى أقوى وشاغلى بها أمتن ، وهذا أيضا ما غلب على فيما تلى ذلك ، بالطبع لم أدرك ذلك إلا بعد انقضاء مراحل ، والمرور بأطوار ، فشوقى متصل بالبعيد أبدا ، ونزوعى إلى الغائب بعد تفرقها على من عرفتهن ، وبحثى عنها فيما يميت إليهن ، عند كل منهن شىء منها ، وعنصر ، أحيانا يظهر وأحيانا يستعصى على إدراك الحواس كافة .

## رشحة الآتية

دائماً آتية . قادمة ، إما من داخل الدرب إلى خارجه ، أو من خارجه إلى داخله غير النافذ ، ينتهى بعد العطفة ، حيث مدخل بيتين متجاورين ، فى أحدهما تقيم ، آخر الدرب بيت مدخله من شارع قصر الشوق ، لا نرى منه إلا نوافذه الخلفية ، ومقاطف معلقة تطل منها ثمرات الثوم المجفف أو البصل ، كثيرًا ما يظهر محمود الأخرس ، يطل من نافذة مستطيلة بالطابق الأخير ، ابن باع لبن شهير ، دكانه أمام مسجد سيدنا الحسين ، كبير الدماغ ، أصلع تمامًا ، يقضى وقتًا يتفاوت قصره أو طوله فى إطلاق أصوات ، مزيج من الزغاريد والزعيق الغامق ، يأتى بحركات بعضها فاحش . إذا ظهر يغلق كل من يحترم نفسه بيته ونوافذه ، يستمر إلى أن يدركه أهله ، يغلق أحدهم المصراعين ، ثم تعلق صرخات ودريكة يعقبها صمت يبدو أنهم يغادرون ويبقى بمفرده فيحدث منه ذلك . معروف ناحية قصر الشوق وأم الغلام وحتى ميدان سيدنا ، مشهور بقوته الخارقة ، قدرته على جر عربة نقل بأسنانه ، أما فحولته فأمرها ذائع ، بعض النساء يستدرجنه بحجة قضاء حاجة ويقدمن على غوايته ، لن يفضح إحداهن ، ليس لأنه أخرس ، لكنه أبله أيضًا ، من سيصدقه حتى لو نطقا

تسكن البيت الأقرب إلى دار الأخرس ، أخسر بناية في الدرب ،  
بالتحديد في الطابق الثانى ، نوافذه مستطيلة ، به شرفة ، الطابق الأول  
يخلو من الشرفات لقربه من الأرض ، فيه أقامت «علية» ، جرى معها  
شأن ، ليس هذا موضع مناسب لذكره ، أما نادية فتسكن الثانى . شقة  
لا أعرف كيف تبدو من الداخل ، لم أرها . لم أدخل أى شقة فى هذا  
البيت ، منه تجىء دائما . أتوقعها أثناء وقوفى فى الشرفة ، عند قدومى من  
الخارج ، توقيتها العصر ، معظم المرات التى طالعت هلاتها كانت عصرا ،  
إنها شهور الصيف أيضا ، يبدو أنها تقضى الصباح والظهيرة فى البيت  
تخرج عند العصر . لذلك أقف فى الشرفة أترقب وأهفو منذ أن لاحظتها  
أول مرة ، تقع شقتنا فى الطابق الأول ، فى نفس المستوى الذى تسكنه ،  
وربما هذا ما يجمعنا بعد رؤيتى وسعيها فى الدرب .

على مهل تجىء ، تظهر عند العطفة ، تخطو وسط الحارة ، ليست  
بالقصيرة ولا بالطويلة ، أمرها وسط ، عنقها سارج ، ملامحها  
متسقة ، تتوزع ما بين بياض بشرتها وسواد رداثها . إذ كانت فى حداد  
على والدها . هذا مقامها من الألوان عندى ، لا أستدعيها إلا من  
خلال بياض وسواد .

### كيف السبيل إليها إذن؟

ما قبل نومي مخصص لها ، تدرجى من اليقظة إلى الوسن ، أرتب  
الأوضاع والمداخل ، تأتى وأقرب منها ، مكان بدون ملامح محددة ،  
يمكننى من الحديث إليها مباشرة بدون خشية أو وجل ، أى لا يعرفنى  
فيه أحد . وحيث لا يوجد من يحيط علما بأنى أتصرف كما أريد

وأقدم على ما أهوى وأرغب بدون وجل . دائماً أنضبط فى مدينتى ،  
ربما رأتى من يعرف . لكننى عندما بدأت أجوس الديار البعيدة صرت  
إلى تلقائية وسفور أمر . شرط بوحى التخفف من القيود والأرصاء .

أتقدم منها ، بعضاً من مشاهد الروايات المترجمة ، التى عاش  
فرسانها فى قرون ما قبل الثورة الفرنسية ، عندما يقرر أحدهم  
الاعتراف لمحبوبته بحبه العفيف ، الطاهر ، اعترض طريقها محتفظاً  
بمسافة ، أطلب السماح بالمشول ، أنطق اسمى ، أن أتحدث إليها ،  
فقط . . الحديث . إذ تتطلع إلى يلوح الإذن فأنطلق :

إننى متيم ، متطلع ، أسير بهائها ، مستعد لتقديم أى عون تطلبه  
منى ، مستعد للمضى إلى حد التضحية بنفسى من أجلها . .

أقوم أحياناً . أنطق بصوت مرتفع ، أنحنى ، أكاد المسها لشد  
استدعائها بمخيلتى ، تتطلع صامتة ، لكنها ممتنة ، لا يطول توقفها  
كثيراً ، تستأنف الحركة فأنحنى عند مرورى بها باسطة ذراعى على  
امتدادها ، ممسكا بقبعة لم أرتدها قط .

فى الحارة لم ألتق بها إلا أثناء حركتها ، حدث ذلك مرة أو مرتين  
عند قدومى من الخارج وذهابها ، تتماس نظراتى بطراوة عينيها . نداوة  
طلتها ، ملاسة بشرتها ، نتفة من لحيفة ، لكنها تطق عندى وتوقد ناراً ،  
تضرمنى . هى دائماً آتية ، والقادم دائماً إلى ذهاب ، إلى غياب .  
هل جرى لقائى بها حقاً أم أنها أمنياتى المندمجة بالذكريات المتوارثة ،  
المتراكمة ؟

تتماس ملامحها بالاسم ، صارت علامة دالة على كل سمية لها التقيتها ، أو اللواتى أنست منهن شيها . مثل شقرة شعرها ، أو طلة خصيلاته على جبينها ، أو سرحة عنقها إلى أعلى ، منطقة تصل المافوق بالأسفل ، الرأس بالصدر ، اسمها منح صفاتها لكل من التقيت بهن فيما بعد . أو قرأت عنهن أو سمعت إن فى شرق أو غرب . عبر محطات عدة ما أن يصغى سمعى إلى «نادية» حتى تمثل أمامى ، وتصل عندى ، تماما كما رأيتها ولى من العمر ثلاثة عشر عاما أو أربعة عشر عاما ، تجيء بهيتها العامة ، لايعنينى غياب التفاصيل ، كانت نمومة ، متناسقة الجهات ، متناغمة الأركان ، اسمها أقوى ما تبقى بعد هلاتها ، ظهورها الناعم . كل «نادية» هى ، يكتمل استدعاءها بمجرد ذكر الاسم ، هذا ما غلب على . ليس بالنسبة لها ، إنما شمل من أنزلتهم عندى مكانة وارتويت بطلاتهن ، وأججن مخيلتى بالسعى إليهن والرغبة فى البث ، سعاد منهن كذا مجدد وكاميليا وعزة وميرفت وميس ومنتهى وسندس وفاليريا وغيرهن ممن يلحن فى أفقى عند تقليبى وتفحصى ما جرى وما بقى .

أعرف القوة الكامنة فى الاسم . كيف يمنح صفات معينة لصاحبه ، كلما تردد ، فهذا يعنى البقاء بصورة ما حتى بعد تبدد الكينونة الحافظة ، ولى فيما يتصل بالاسم تدوين طويل مفصل ليس هنا مجاله . غير أننى أؤكد ما أدركته ، ليست نادية عندى إلا اسم ، مجرد نطقه أو سماعه أو قراءته تأتى . لها سعى ومنها إقبال . و طلة متسائلة ، حزينة .

أقصى مستحيلى وقتها أن أترصدها خفية حاملا آلة تصوير ،

كمونى فى موضع لا يمكنها رؤيتى منه . إذ تلج بؤرتى التقط الصورة التى تكفل مصاحبة ملامحها لى ، استعدادتها عندما أرغب ، لكن لم يتفق لى ذلك ، تكفل اسمها باستدعائها ، فليس ما يثيره عندى «نادية» مثل الذى يعنيه هند .

كيف أساعدها هى اليتيمة؟

أوقات أحاول تلمس الوسائل ، لو أننى أكبر قليلا لتقدمت إليها ، لبسطت أمرى عندها ، لكننى مازلت أوليا . لا امكانية إلا التخييل ولا قدرة إلا التمنى . عرفت مثل ذلك عندما أصفيت إلى جدتى تقول :

«مسكينة الحمراء . . زوجها طلقها . .» .

أصفيت من مرقدى . أبدولهن نائما ، غير أننى كاتم شهيقى وزفيرى ، متطلع جياش ، الأمر يخص الحمراء ، والشفقة بادية فى صوت جدتى ومصمصمة شفاء أمى .

«أولاد الحلال يسحشون لها عن زوج . . البنت حلوة وفيها الطمع . .» .

هنا لم أستطع صبورا ، انبثق صياحى . .

«لا . . لن يتزوج الحمراء غيرى . .» .

تطلعن ناحيتى ذاهلات ، مالت جدتى نحوى .

«بسم الله عليك وعلى أختك اللى أحسن منك . . مالك يا حبيبي» .

نفرت إلى الوراء زاعقًا .

«لن يتزوج الحمراء أحد غيري . . .» .

تبتسم أمي ، تتحول الخفة إلى دهشة سارة ، أقعد مواجها ، غير  
مبال ، الملح حنوا في نظرات أمي .

«طيب نام يا حبيبي . . وأزوجها لك في الصباح . . .» .

على امتداد زمني التالي أستعيد ما جرى تلك الليلة ، أرى ارتجاف  
اللمبة الساروخ ، الغريب أنني لم أخجل رغم إفصاحي المباغت ، من  
ناحيتهن اعتبرن ما قلته شغل عيال ، وربما أدركت أمي مشاعري  
المبكرة .

«الحمراء طلقت . . .» .

«الحمراء مسكينة . . حظها وحش . . .» .

كيف أساعدها ، كيف أمد العون ؟

إنها الحمراء إذن !

كم من حقائق أدركها أثناء تقليب ما كان مني ، ألم بها متأخرا ، كم  
من أمور ما تزال مستغلقة عليّ ، سأمضي بدون الوقوف عليها ، أثق  
أن ما أجهله أكثر مما عرفته ، يكفي ما أتحرك به وما أسكن عليه داخل  
حسي وفي ثنايا نفسي ؟ لعقود متتالية ظننت نادية مصدر ، لكنني أدرك  
من خلال هذا التسطير أنها ليست إلا رشحة منها وترديد . أبدأ  
بالتساؤل : هل هفوت نحوها وملت لأنها كانت آتية دائما ، تدخل



مجال بصرى عند قدومها من داخل أو خارج، تماما مثل ظهور  
الحمراء فوق السطح .

هل حدد بزوغ الحمراء أول شرط عندى لتحقيق ميلى؟

أن تأتى ا

لا يمكننى القطع، لاح ذلك أثناء تدوينى . لكننى أميل شيئا فشيئا  
كلما توالت على الهلات الأولى لكل من عرفتهن، وجرى لى معهن  
شئون ومجريات أمور، بالطبع تجد عوامل أخرى، لكن ثمة ما يمت  
إلى الحمراء دائما وأيضا من يتبعنها، تتداخل العناصر وتتوالج  
الأسباب، لكن عندما ظهرت نادية لم يسبقها عندى إلا الحمراء، إنما  
أودعت كل منهن أمرا مستجدا إضافة إلى ما استنفرتة من عناصر  
كامنة .

انقطع مجيئها . كف قدومها . طال وقوفى . لم أعد أبلغها . عرفت  
الوحشة مع تمام الغروب وخلو الحارة من الأطفال والباعة . وتردد  
أصوات الليل المتباعدة خاصة مع تناول العشاء، وأصداء بعيدة  
مجهولة المصدر، أرتد إلى الداخل، أرتب كلمات عتاب أنطقها عند  
ظهورها . لن ألزم الصمت، لن أطرق متواريا وكأن سريرانها  
لا يعينى . لن أخفى . غير أن أياما توالت بدونها . بعد تناولنا العشاء  
وخروج أبى لقضاء حاجة ونوم أشقائى جلست إلى أمى، تخبرنى  
بأحوال الحارة وأحكى لها عن زملائى فى المدرسة، اعتدنا ذلك . فى  
زمن أقدم، كنت أجلس إلى جوارها بعد عودتى من مدرسة  
عبدالرحمن كتخدا الابتدائية، أحكى لها عن معارك خضتها . جيوش

هاجمت المدرسة . وكيف تصدينا لها . وأنفاق تكشفت لنا عندما عثرنا  
أثناء اللعب ، وتمكنى من رؤية مدينة تحت الأرض ، لكنهم منعوا  
ذهابنا إليها ، كانت تصغى أثناء غسلها الثياب أو طهيها الطعام ، تبنى  
دهشتها أو إشفاقها أو جزعها ، لكنها لا تسخر ولا تظهر التكذيب .

حرصت ألا يشى صوتى بأى فضول عندما استفسرت عن البنت  
اليتيمة التى لم تخلع السواد بعد رحيل والدها . مجرد سؤال عارض ،  
غير مقصود .

قالت إن القلوب خلت من الرحمة ، صاحب البيت اضطرها إلى  
الذهاب بعد توقف أمها عن دفع الإيجار ، الشقة كبيرة ولم يعد لهما  
مورد . أبوها كان موظفا صغيرا فى محل يبيع القماش بالحمزاوى ، لم  
يترك لهما معاشا ولا موردا . .

## رشحة المدبرة

لم أدرك التشابه بين الصوتين إلا بعد انقضاء اثنين أو أربعة وأربعين سنة، الممت بالصلة مع أن ورود الصوت على الخاطر والوعى به أو استعادة إيقاعاته وخصوصياته مما يشق على النوع الإنساني . لكم بذلت الجهد لاسترجع أصوات من كانوا ملاذى ومستقر هواى . لكننى أرتد حسيراً، لا قبل لى ولا قدرة بالملاحظة والمعاناة أيقنت أن الأصوات أول ضحايا النسيان . أول ما يدركه الطى وآخر ما يمكن استعادته، فكيف بزغ عندى ما صدر عنها واستوعبته منذ سنوات طوال نتيجة مؤثر عابرا

«يا خديجة . . يا لالا انزلى . .» .

أول ما عرفته منها ندائها على صاحبتها، سارى، ممتد، يبدأ حيث لا يمكننى التحديد ويمضى إلى حيث لا يفنى ولا يستحدث، كأنه علامات مائية على الماء . كيف يمكن التعيين؟

مكانها مؤطر بزمانه . ولأن وقتها ولّى فقد راحت مواضعها كلها، رغم أن الحارة باقية، المدخل والمنحنى والعطفة والبيت الذى أقامت به، والبيت الذى رفعت وجهها صوب شرفاته ونادت، الزمن يولى والمكان أيضاً . وهذا أمر دقيق ربما فصلت الحديث عنه ولكن فى غير هذا الموضع .

دارها مواجهة للفرن، ثلاثة طوابق، لا يسكنها غريب، ثلاثة أشقاء، عمها حمدي أفندي مدرس اللغة العربية، أصلع، يحيط حضوره بمسافة تفصله حتى عن المقربين، جاحظ العينين قليلا، أبوها موظف في متجر قديم بشارع السكة الجديدة، يبيع القمصان والملابس الداخلية والجوارب والمناديل والطواقي والعباءات من القطن صيفا والصوف شتاء. يقصده أبى قبل دخول المدارس، يصحبنى مع شقيقاي أتطلع إلى أدراج الورق المقوى ذات المقابض المعدنية، داخلها القمصان والسراويل والجوارب، لم أعرف مثلها إلا في متجر عوف للأقمشة والملابس الجاهزة القديم، الكائن بحارة الحمزاوى لكنه استبدلها بأدراج حديثة منذ حوالى عشر سنوات، لكن ما يشبهها باق فى باريس. دعانى صاحب حميم إلى غداء فى مطعم قديم يحتفظ بتاريخ افتتاحه فى منتصف القرن التاسع عشر، مطل بواجهته على شارع الأمير، بالحى اللاتينى. لم أتوقف عند اللوحات العتيقة والإعلانات القديمة عن سلع بطل إنتاجها ولا عند الأثاث القديم، أو نباتات الظل المبهجة. أو الفراغ الكثيف نتاج توالى الوقت على مكان محدد لم تتبدل هيئته كثيرا، إنما اتجهت إلى نهاية الصالة الكبرى، توقفت أمام الجدار الذى يفصلها عن الصغرى، أدراج متراصة ثابتة، ترتفع إلى حد يتجاوز قامة إنسان معتدلة.

عين الأدراج، من الورق المقوى، مقابضها معدنية كأنها صيغت من ذاكرتى، كأن المصدر واحد، تنسجت الرائحة ذاتها، أقادمة من شارع السكة الجديدة أو من شارع الأمير؟

يبدو أن ما تعاقب على ملامحي لفت نظر سيده ضخمة ، متناسقة الملامح ، عذبة الابتسامة ، جاءت تحظو ناحيتي ، الوحيدة التي ترتدى ثوبا أسود قصيرا ينتهي قبل ركبتيها ، أستفسرت عما إذا كنت أود السؤال عن شيء محدد . أشرت إلى أدراج الورق المقوى . مدت أصابعها لتمسك بالمقبض . بدلا من الملابس ، رأيت مراقدا ثلاث زجاجات من النبيذ ، ممددة ، آمنة ، يفصل كل منها عن الأخرى حاجز رفيف من ورق قديم .

« منذ متى . . . ؟ » .

« منذ عام أربعة وخمسين وثمانمائة و . . . » .

« يعني منذ قرن ونصف تقريبا . . . ؟ » .

بالنسبة لى تبدو المدة أبعد ، تمت إلى بداية مجهولة لا يمكن تعيينها . لم تحد عيناى عن الأدراج ، كأن والدها سيلتفت ، يسحب أحدها ليتناول منه قميصا يناسب مقاسى . أو سروالا أو جوربا . صرت أجيء بمفردى وأحصرص على الجلوس فى ركن أرى منه الأدراج المصفوفة متسائلا عما يحكم الذاكرة ، لماذا تحتفظ أحيانا بومضة ، لحظة مساحة ضئيلة ، أو شيء ما لم نتصور قط لحظة معايتتنا ورؤيتنا واستيعابنا له أنه سيبقى معنا أبدا ، لماذا تمحى أمور وتبقى أخرى ، وماذا سيظهر عند التأهب للرحيل . وأى مشهد سينتهى البصر الحديد إليه ؟ من يرتب ، من يحذف ، من يُبقى ؟

إذ ترانى المشرفة الضخمة عند المدخل ، تتهادى صوبى ، تمد يدها

تدعوني ، وفي الوقت نفسه تشير إلى الأدرج ، لا تعرف ماذا يعنى لى ذلك ، لكنها أدركت اهتمامى ، وأن ثمة أمرا تشيرهُ الأدرج عندى ، لا ألمحها إلا أرى والدى فى مواجهة أيها . عرفت اسمها كاملا برؤيتى له وتعرفى عليه . إنه العم أحمد الحسينى . أبوه . . . أى جدها يسكن الطابق الأخير . لا يخرج إلى الحارة إلا نادرا ، دائما متوكئا على عصاه ، أمره معروف ، ذائع فى الجمالية والحسينية والدرب الأحمر لقدرته الفريدة ومهارته فى أمر دقيق ، مازال قادراً عليه رغم انحناء قامته وثقل سمعه . خلف البيت يمتد فناء يمارس فيه ما اشتهر عنه . إذ كانت لديه الإمكانية على تحنن الخيل والجمال التى تستعصى على التلاقى المتمر للإنباب . عنده حصان مؤصل . نسبه ثابت ، سمع به الملك فؤاد وكان هاويا لنوادير الخيل ، عارفا بها ، وله عيون تنبئه بالأصائل منها ، أرسل يستدعيه وكان يوما مشهودا عندما شق من الجمالية إلى قصر عابدين عبر شارع الغورية وتحت الريح وباب الخلق ، عاينه وملس على رقبتة ، وأطعمه السكر لكن الجواد الكريم لاذ بصاحبه ودللدل رأسه ونبش التراب بحافره الأيمن ، مما دعا كبير الياوران يهمس فى أذن جلالة الملك ألا يصبر على إبقائه فى القصر ، فلو غابت الشمس عنه هنا لن تشرق عليه حيا . من الأفضل أن يبقى عند صاحبه ويمكن إرسال الإناث الكريكات إليه ، أولا وأخيرا ليس الحسينى إلا فردا متواضعا من الرعية ، المهم . . . سلامة الجواد .

عندما تقرر إزالة مقهى الفيشاوى عام تسعة وستين وتسعمائة وألف ، لم يتحمل صاحبها الحاج فهمى رؤية أول معول يبدأ هدم الجدران التى استند إليها ، وأنها ، الفراغات المظلمة بما تحمله من عبق

نعناعى وعبير شاي وقهوة وجنزيل وسحلب وأشربة مختلف ألوانها . وتنباك عجمى ولاذقانى وعدنى . مال رأس الرجل فى قعدته فوق الدكة المستطيلة تحت قفص الحمام ، وعلى مقربة من مربوط جواده الأشهب الذى كان لخروجه راكبا يوما مشهودا يكاد الناس بدءا من ميدان الحسين وحتى باب النصر يرقصون على إيقاع خطواته .

الحاج فهمى مات بالحسرة ، لكن بماذا يفسر القوم رحيل الحمام؟ كانوا سبعة ، ثلاثة ذكور وأربع أناث قمريات ، أما الجواد فهوى بعد أن كان يمضى الساعات الطوال بقرب صاحبه أنثت قوائمه ولم تعتدل قط . حتى الآن يستعيد الخلق ما جرى بدهشة ، ولكن ما لا يعرفه كثيرون أن الجواد من سلالة الأصهب النادرة ، ولولا صلة وثيقة بين جد سعاد والحاج فهمى لما حدث اللقاح الذى أثمر هذا المؤصل .

كان سهيل الأصهب يتردد فى الحارة ويتجاوزها إلى درب المسمط وشارع قصر الشوق . يثير النساء ويؤلب الرجال ، يجبر الكافة على الإصغاء والتروى لإعلان الرغبة المحمومة . كان جدها قادرا على تحنين الفرس الحرون وإثارة شبقها إلى حد يدفع بها إلى أقصى انفراج ميسر ، يشقن أمورا لم يفصح عنها حتى لشقيقه ولولديه أحمد (والدها) وحامد (عمها) . ذاع صيته باعتباره أفضل من يؤلف بين الحمار والفرس لإجباب بغل ، يستغرقه تماما قفز الجواد الأصهب فى الفراغ مطاولا بعنقه أعلى الفراغ محاولا المرة تلو الأخرى إيلاج القضيب المستوفز فى الفرج المرطب بماء الدعوة الأمن ، المتهايا المستكين عند لحظة معينة يمد يده ، لا بد أن تصغى الأنثى إلى النفرات المتتالية

والمحاولات المتداعية حتى يكتمل تأهبها وتسلك . يرشد بأمانة ودربة فتقع الغاشية ، أما خبرته بالظروف التي يمكن للجمل أن يضاجع خلالها أنثاه فلا يقارن به أحد ، حتى أن بعض تجار الجمال يجيئون عبر درب الأربعين من السودان قاصدين درب الطبلاوى ليقدموا إليه إنائهم المستعصية . معروف أن الجمل صعب الأحوال ، لا يقدم إلا بعد اطمئنان تام وتأكيد قاطع أنه ما من غريب يرقب أو بصير ينظر ولو من بعيد عدا جدها ، كان يقترب ، يمرر أصابعه بمهارة ودربة ويهمس مالا يعرفه أحد ، عندئذ تصدر الهرهرة ويقع التوالج الأتم ، يسود الحارة كلها صمت متواطئ ، راغب . كل يقتدى ويتمنى . أحد الباشوات من أقطاب الحزب الدستوري وصله أمره ، أرسل في استدعائه إلى قصره بالجيزة . أصغى صامتا إليه شكا الباشا ارتخاء أعصابه وما نزل به من وهن ، تبسط معه حتى أفضى بدقائقه ، البنت صغيرة وجميلة ، يخشى عليها . له ما يريد إذا مكنه وستره معها ، غير أن رده كان سلبيا . اعتذر ، قال إن للإنسان درب ، وللحيوان درب ، وما يصلح هنا لا ينفع هناك . قال الباشا إنه يحترمه أكثر ورجاه أن يستره . لكن كيف تناقل الناس ما وقع ؟ لا أحد يدري ، هي حفيدته . لصوتها شرخة تتمرمر في مسرى دمائي ، إذ تنادى صاحببتها يقع استنفاري ، أستدعى حضورها بتلك السلخة ، كذا قوامها المشرب ، كأن صلة ما تربطها بالأصهب ، ربما توحيحت أمها على الحصان المنسب ، من يدري ؟

«ياخديجة . . .»

ليس نداء ، ليس صوتا . إنما زهو وانبثاق ضوء مصهور ، شعاع



لا يتوقف عند خروجه مكتملا من حنجرتها . إنما يستمر مصعدا فى الفراغ ، ويستقر فى مكان من الذاكرة ليباغتنى بعد أكثر من أربعة عقود ، ينادينى منى ، ما بين صحوى وغفوتى ، عفا ، متقدما ، محرضا الفراغ ذاته ، تماما كما أصغيت إليه المرات الأولى ، مع أن صاحبه ربما لا تكون مقيمة فى هذا الوجود الحاضر الحواسى .

«انزلى بقى . . .» .

يلغى ما عداه ، يشمل اللحظة والموضع المدرك منه والخفى وكافة ما يصدر عن المحسوسات ، زميلتها أقصر منها ، ممتلئة ، عادة تجيبها بعد أول نداء ، أحيانا بعد اثنين ، لم يعلق بذهنى أى أثر منها ، صوتها خافت ، مسطح ، ذو مستوى واحد ، لا يمر خلالي ، إنما إلى جوارى أو بعيدا عنى . ليس فيه ما يدغدغ أو يرقرق بعكس الآخر ، أقصد الأول . . إنه محرض ، دافع إلى سبل النشوة ، إلى مبادئ الشهيق . مطلقا النخرة والشخرة ، يمسس ما لا يمكن رصده ، يدفعنى إلى محاولة الركض ، إلى أى اتجاه؟ لا أدرى .

توحد النداء بقوامها ، لا يصدر عنها ولا تطلقه إلا إذا كانت واقفة متطلعة مشهرة غصنها السرح اللدن ، المثقل بثمارها وشرافات طلعتها .

تقف عند المدخل ، تتراجع إلى الوراء . يتكى قوامها على الفراغ الملامس لظهرها ورد فيها ، يتحدد بروز صدرها المكين ، ما بين العلو الأمامى والسفل الخلفى تناسق مريب ، غريب فكأنهما صنوان . انفصلا واتصلا . إلى الطول المتناسق تنتسب ، مماثل لقوام الحمراء

السيباني . تتقن أشهرها ، أنه الوضع الذي تتأهب خلاله لتنادي ، لتطلق مويجاتها ، لا يستغرق النداء إلا مقدار نطقه . لكن ما يخلفه عندي كثير بعضه كامن وقليله ظاهر .

لحقتني صهيلها في أماكن وأوقات وأوضاع شتى ، أدركني مقيما وراحلا ، ممسيا ومصباحا ، غسقا وشروقا ، إذا كنت راكداً أخف ، وسنا أصحو ، راقداً أقف ، شارداً أنتبه ، واقفاً أقعد ، لكم شسعت أمكتني المحدودة لحظات استلامى أصدائها ، تتخلل خباياي ، أغمض عيني فأرى ما لم أدركه طول تحديقي ودنوي ، بعد أن تنائينا مع مضي الأحوال وتبدل الأزمنة وبلوغى ديار لن تحمل بها ولن تنزلها ، وإذا وصلت إليها لن تدرك أبداً أنني حللت بها . هذا شأن كل غريب . عابر ، غير مقيم . نفذت إلى شغافى ومست حناياي . بلغت منى ما لم أبلغه عندي ، إذ أسمعها فجأة لا أميز الحروف الصادرة ، لكنها هي ، أصداء غامضة ، تستعصى على وعيى إذا قصدت استعادتها لكنها تباغتني حيث لا أتوقع ولا أتخيل . بداية النسيان ضياع ملامح الأصوات ، بل يمكننى القول الآن بانتفاء وجود ركن ركين تأوى إليه الأصوات ، لكن أحيانا يباغتني المفقود . كأنه يفلت من حدود عالم غامض ، يصبح مفردة من الهواجم ، لا يستغرق المروق إلا لحظات يصعب رصدها . لكنها تشعل حيننا لا يهدأ ، كثيرا ما باغتتني فجرا . تنادى فجأة . قادمة من الصمت إلى الصمت . دائما فى التوقيت غير المتوقع . فى الزمن الذى لا أقدر على احتسابه . عندما تتداخل الحدود ويشق على التعيين ، أميز حممحتها رغم قيامى فى البعد ، لا أعرف

حروفها، بل لا أدري إذا كانت تنادى صاحببتها، أى أننى أستعيد قديمها، أو أنها تخصصنى بنطق أسمى عبر الغوامض التى لا قبل لى باستيعابها، فى نقاط متباعدة من العمر بعد انقطاعى وتنقلى فى الأمكنة والأزمنة، واختفاء كافة ما عرفته من مصادر أبقت على وشيجة. بدأ ذلك برحيل أمى وانقطاع شقيقتى عن زيارة جارائنا اللواتى حفظت ودهن حتى إدراك الوهن للصلوات القديمة، لكم تطلعت إلى أمى مبتسما. تدرك المعنى الكامن. اعتدت مواجهتها بها عند شروعى فى التورية، لم يخف اهتمامى القديم عنها.

«ما أخبار سعاد؟»

أخر ما أطلعتنى عليه يتعلق بمدينة المنصورة، غاب عنى الآن الأمر، هل زواجها وانتقالها للإقامة هناك أم التحاقها بهيئة تدريس الجامعة.

لا أدري . .

المهم أن ثمة صلة بين هذا المكان وبينها. من يسمعون عبره أصغوا إلى صوتها. هل أدركوا ما عرفته؟

لو أبديت الهمة لتوصلت بقبس من أخبارها. لكننى رحت أستعيدها بينى وبينى فصارت عندى أكثر ثراء مما هى عليه فى الواقع المحسوس، أيضا. خشيتى سماع ما يكربنى حال بينى وبينى، غير أن ما لم أتخل عنه توقعى رؤيتها مصادفة، وهذا ما لم يحدث قط حتى وقت تدوينى هذا. كأنى اكتفيت بالتمعن فى أصدائها. تلخص حضورها فى الموجبات غير المرئية، بل إنها بداية إدراكى مباهج

الأصوات، بعض ما سمعته منها أجبني وبعث دفئى، جلبت بتأثيره ما بين صلبى وترائى .

لا تصهل فرس إلا ويباغتنى وقوفها، رفعها الرأس عالياً، نداؤها، أضنانى على البعد، والبعيد دائماً مدبر، ماض إلى موضع ما، تتداخل ملامحها، خطوها، بمشية الفرس المتأهبة، والحصان الواثب الواثب، ما بقى عندى أصعب ما يمكن استعادته، صوتها .

تلك الشرخة النعومية، لكم اجتهدت لتوصيفها، لكن ما من ألفاظ تساعد، أث ما أقدر عليه من جهد، صعب احتواء أى صوت بالوصف الدقيق، رغم أن الألفاظ ليست إلا أصواتاً، لكن ليس كل ما تدركه الحواس يمكن التعبير عنه، يشق على التأشير والتعيين، تلك الحمحمة، الإنشطار المفاجئ المزجج، إنه بداية اهتمامى وإدراكى رفعة الصوت، أنه ليس مويجات ونغمات، إنما تصوير وتلخيص، تصوير للدخائل والرقائق . إذ أصغى عبر الهوائف، أو من وراء حجاب مكائى أو زمائى أنفذ إلى أحوال المناطق، أدرك إذا كان مرحباً، أو متبرماً . إذا أدركه ضجر أضع يدي عليه، إذا حاول إخفاء أمر يظهر عندى . مثل إعياء عابر، أو وهن مدسوس، أفهم الآن السبب الكامن وراء ذلك الطلب الغريب الذى بيديه الأطباء عند الفحص .

«قل آه» .

... ۞

عبر الآه الممدودة يبدو مكمّن الداء . كلما جاء الصوت عن بعد  
ازداد كشافاً لأحوال مصدره . كلما نأى زمنها عندي أعمقُ كشافاً  
وفهماً ، كلما أمعنت في أدبارها ، العجيب أنني لا أذكر أستنفاراً حسياً  
جرى عند سماعي نداءاتها ، أو حوارها مع صاحبيتها في الصباح  
الباكر ، أو أويقات العصارى ، إنما جرى لي ذلك عند استعادته ،  
فكأنني جبلت على مضاجعة العدم ، والاتحاد بما لا يوجد ، غير القائم  
في السنن .

إنها الحمراء ، واقفة فوق السطح المغطى بجريد النخيل وأقراص  
الجلّة تطل على فناء البيت قبل تخطيها الحاجز مبتعدة ، متنقلة عبر  
أسطح البيوت ، لحظة أدبارها يرتفع صوتها ، أدرك أصل البحة  
ومصدر الشرخة التي علقّت بي فلاقيت منها تعباً . وهن أدركني  
فلا أدري الآن أيهما أسعى إليه أو يسعى إليّ ، من على وجه اليقين  
والتمام؟ الآتية أم المدبرة؟



## رشحة الروائية

إلى وقت قريب ظننت أنها المرجع ، أنها المصدر والأصل لكافة من ملت إليهن وسعيت تلمسا لود أو بدء صلة ، لسنوات طوال بعد اكتمالها وفراغى منها استقر يقينى هذا قبل أن أبدأ تفحصى لما كان ، ورؤيتى بعد انقضاء الأوقات ما لم أطلع عليه وألم به فى حين اكتمالها وتحققها .

لما جرى ذلك فهمت أنها فرع ينتهى إلى الحمراء ، أن كل ما أسرنى إليها مجرد ترديد . أنها ليست مصدرا بذاته ، لكن شق علىّ تعيين عنصر معين مثل سابقاتها يمكننى القطع أنه يمت إلى من لا أدرى أين مستقرها وما واما الآن .

ربما لأنها علامة فارقة ، فكل من نزعت إليهن قبلها لم يبلغهن أمرى مثل نادية وسعاد وما بينهما عبور سريع لبنية فارهة سمراء كانت تزور أمها وزوجها المقيمة فى مواجهة شقتنا بالدرب الأصفر لها ذكر فى دفتر خصصته للنوافذ ، لحظة ظهورها فى الشرفة تكتمل مشروعاتى ، أتطلع لكننى لم أعلق ولم أكابر ، ما عرفته من ترصدى نادية ، وطول انتظارى صوت سعاد ، أما مجيدة فصا فحتها وأصغت إلى نطقى كما أينعت ألفاظها عندى ، فى ليلة لقائى الأول بها ، كنت

عفيا، منطلقا بكامل حمولى، تواقا. الزمن كله قادم، وعندما يبدو هكذا لا يطيل المرء التأمل، ولا يدقق فيما يكون بالفعل. مع اكتمال المراحل، ودنو الأسفار من غاياتها، يعين المرء النظر فيما قطعته وأتمه. عندئذ يرى فى المنقضى ما لم يطلع عليه وما لم يلم به وقت مثوله، هل ما يقف عليه متعلق فعلا بما كان، أم له صلة بمفهوم ورؤى تقوم الآن؟ فكأن الأمر تفسير لمتن انقضى أمره، طويت صفحاته، وبهتت سطورره، ولم يتبق إلا وريقات معدودات؟ أم إنه الوعى بذلك يأبى المحو فيتعلق بما تجسد وسعى يوما، وهكذا لا يكون ذلك إلا رفضا للعدم ورغبة مستحيلة فى الإثبات. هنا يصبح تقليب الذاكرة وفحص مكنونها اعتصاما بالوجود وتعلقا به.

يمكننى تحديد وقت انبلاجها، إشراقها فى أفق وعيى، أما المكان فناصح لا ريب فيه، بالضبط أمام مدخل المسرح القومى. المطل على ميدان العتبة، القائم عند الطرف الأقصى لما تبقى من حديقة الأزبكية. فى ذلك الوقت كان السور مكتملا قبل نقل الباعة وتشريدهم. وكان مبنى الأوبرا مركزا للمنطقة بوقاره ورقته وزخارفه وما يصدر عنه من موجات غير محسوسة قبل أن يلتهمه الحريق فى عام واحد وسبعين وتسعمائة وألف. وكانت مقهى متاتيا عامرة، كذلك البناء العتيق الذى يعلوها، قبل اكتمال هدمه مع مطلع القرن الجديد، ولسنوات كنت أتابع إزالته البطيئة بسبب تضارب القرارات وليس عن قلة إمكانيات، بدءوا بخلع الأبواب والنوافذ المستطيلة، وهنا انكشف لى عرض الجدران المبنية من الحجارة الصقيلة، إنه نفس طراز مبنى البريد، ومبنى المطافىء، وفندق البرلمان، ومقر صندوق الدين، وُضع



التخطيط كله ليكتمل مع الأوبرا، ويبدو أن الأوبرا كانت بمثابة المتن،  
وتلك البنائيات هوامش، أو ترديدات.

عندما اقتربت من بوابة المسرح القومي قاصدا مشاهدة مسرحية  
لا أذكر اسمها الآن وبالتالي مؤلفها. كان الوقت ليلا. وبرد القاهرة  
مائل. إذن. . . ربما كان ذلك فبراير أو آخر يناير من عام تسعة  
وستين. الملابس وانتظام الطقس عبر الشهر أدلتى وبرهاني.  
كانت ترتدى السترة الجلدية الشمواه، وتنورة تتبادل مربعاتها  
الألوان، وتلك السترة شأن وترجيح دونته فى القسم الذى خصصته  
لما ارتبطت به من أشياءهن. وما بقى عندى من آثارهن، بعضه مائل،  
أحتفظ به والبعض عالق عندى، لم يححه التوالى والمرور من أيام إلى  
أخرى.

إذن الفصل شتوى، الوقت ليلي، تلك الساعة الواصلة ما بين  
الثامنة والنصف والتاسعة والنصف موعد رفع الستار حيث لا يمكن  
دخول قاعة العرض. كانت التعليمات صارمة والنظام ما زال والجرح  
الذى بدأ فى يونيو لم يزل طريا ينزف، لا بد أننى دخلت محيطها  
ولا بد أنها ظهرت فى مجالى عبر ذلك التوقيت. غير أننى لا أقدر  
على تعيين اليوم، سبت أم أحد، اثنين أو أربعا؟ لا أدرى، لم أنتبه  
قط عند مرورى باللحيطات المؤدية، السارية إلى تشبيت اسم اليوم  
والتوقيت، إنما جل اعتمادى كان على الذاكرة، بل إننى لم أنتبه إلى  
القدرة على الاستعادة فكل ما تعلقته به وأثر فى كان قريبا ولم يتعد  
بعد. لم تفصلنى عنه المسافات، لم أتوقف كحالى الآن لأتفحص  
ما اندثر، ولأبذل الجهد كى أفهم ما كان عليه بالفعل وكيفية مثولى

له، أو رؤيتي له الآن، وما أنا إلا محصلة تلك الأويقات المندثرة،  
والثواني المنشطرة، المنقضية، والرؤى المبهمة، وقد كانت يوماً جلية.  
ناصعة، غير أنني مررت بها مرور الغوافل، السادرين في غيهم، غير  
المتبهنين إلى مآلهم وما سيصيرون إليه، لم أنتبه إلى أنني سأبلغ يوماً  
أعتصر فيه مكنوني لأتذكر عبارة أو كلمة ممن تعلقت بهن. يتسلل كل  
منا إلى حنايا الآخر، كل شيء كان راسخاً، واضحاً كأن التفاصيل لن  
تبيد أبداً. الآن. . أرى الأمور في جملتها، في عمومها. ربما تفلت  
بعض الشظايا، لكنها تبدو منبثة، لا صلة تربطها بما كان قبلها أو  
بعدها، كما أنني غير مدرك، غير ملم بقوانين خفية تعمل عملها  
بمعزل عنا، فتواري تلك اللحظة وتبقى على تلك. تجعل هذه العبارة  
حية ماثلة، وتفنى مناقشات شتى، بعضها كان ممكناً أن نقضى خلاله  
لشدة أنفعالنا وتصديق أمرنا.

تلك الليلة لم أدون التوقيت وأثبت الحالة، ربما لإستغراقى وجذبي  
إليها. بعد طول معاينة وتكرار أحوال أقول إن النظرة الأولى تحدد  
المسار، بها يتم الأمر كله. وما يتبع ذلك تفصيل. تماماً مثل الانفجار  
العظيم الذي جرى ثم تلاه تمدد الكون وتكون الأجرام من مسجرات  
وكواكب وشهب وغبار كوني منه جئنا وإليه نعود. تماماً مثل الولادة،  
يعلن المولود عن مجيئه باكياً، صارخاً، مغمض العينين، ثم يسرى،  
حتى يستوى فيرتد منكساً كما جاء أول مرة، كل الحيوانات تكتمل  
لحظات بزوغها، تتحدد مساراتها. إلا تفاصيل، تفاصيل تجيء،  
أخرى تروح، حتى تحين لحظة الاكتمال فتنهض الراحلة. هذا جُلُّ  
شأنى مع اللواتى عرفتهن وهفانسيمنى إليهن، ذلك معظم حالى،

باستثناء نادر يسير . مرة واحدة ، عندما جمعتنى ظروف العمل بشابة سمراء ، سرحة القوام ، قديمة الطلة ، كأنها تجسدت خارجة من جدارية فى سقارة أو طيبة ، أو مقبرة مجهولة فى صحراء لم يبلغها إنسان بعد ، لم يهتك سرها . كنت أتعامل معها يوميا . أصافحها . أتبادل معها الأوراق ، أتحدث إليها خطفًا . كلمات متبادلة ، أعتدت طوال عمري ألا أتطلع إلى إحداهن فى مقار عملى ، منتسبًا إلى صاحب قول متداول . «الفران الشاطر لا يأكل من خبز أعدده ودفع به إلى النار» .

غير أننى انتبهت إلى بصتها يوما ، وليس مثل نظرة الأنثى كاشف لها ودليل ، تلك الطلة الريانة المؤطرة بالكحل والإغواء الصامت والفورة المقموعة والنداء الصريح ، غير المنطوق ، استمر تطلعها إلى مقدار ثانية لكنها كافية كى أدرك أن كنزا مغمورا فى متناولى ، أمر به يوميا ولم أنتبه إليه . خبيثة كان ممكنا أن أفضها منذ سنوات ، ولكن غشى على بصرى وطمر حسى ، وهذا حال فريد لم أعرف مثيلا له من قبل ، ربما أفصله فى موضع آخر ، لكن الغالب على حالى ما يمكن أن أسميه الاندلاعة ، هذا ما جرى تلك الليلة أمام المسرح القومى .

غير أنها لم تكن بمفردها ، إنما بصحبة أحد معارفى ، مصمم سجاد شهير بين أهل الصنعة ، تخصص فى طراز بخارى بأنواعه ، لديه مصنع صغير يضم ثلاثة أنوال يدوية ، يقوم بصناعة هذا الطراز الجميل ذى النقوش الهندسية المتماثلة ، بدءا من صبافته خيوط الصوف البيضاء بالألوان الحمراء الياقوتية بدرجاتها الغامقة والفاخرة . توسع

فيما بعد وصار شهيراً بين رجال الأعمال ، لكنني لم أنس قط أنه كان  
وسيلتي إليها . مبررى لمصافحتها ، عندما قدمني إليها قائلاً . .

«مجد غورس . .» .

ثم أشار إلى ناطقا اسمي باعتزاز شأن من تزداد مكانته بصحبه  
المبرزين أضاف .

«صدر له كتابه الأول . . لا يمر يوم إلا ونقرأ عنه . .» .

مجملها أخذني عني ، غير أنني تترست في موقع المتطلع إليها ،  
العائق بصره بها . من عقد العزم على ألا يكون اللقاء عابرا ، ألا تنقطع  
الصلة بمجرد انتهاء اللقاء ، تلك جاءت إلى هذه اللحظة لتبقى معي ،  
لا يعينني كيف ، ولكن يجب ألا يقع انفصال تام ، لم أفكر في كنه  
العلاقة أو مداها ، لكن وجودها حرضني ، وسعيها في الحياة الدنيا  
استفرتني ، فإن لم أستطع إلا النظر فهذا حسبي .

حدث بعد عقود متوالية أن التقيت ببنية رقراقة . في مدينة صغيرة  
بجنوب فرنسا ، ثم جاءت إلى موطني لدراسة لغتنا وآدابنا ، واتصلت  
بي عندما اجتازت باب مكتبي قصدت قلبي مباشرة فخيل إلى أنني  
أسترجع صبوات الزمن القديم ، حدثتني عن لقائنا في مدينتها الذي لم  
أذكره على الإطلاق ، لم تلفت نظري ولم تشر انتباهي أول مرة ، ربما  
لأنني كنت في جمع وضجة وربما لنزول غشاوة على بصري ، أو  
انشغالي عنها بشيء ما ، حدثت إليها متفرسا مقتحما . في السنوات  
التي تمر الآن لا أرجى ولا أخفى . ربما بتأثير إدراكي قلة الوقت وقرب

المصير ، هذا حال غالب علىّ عموماً ، فى لقائنا الثانى قلت لها إننى قريب ، قريب ، وأنها لمست منى وترا . قالت كريستين دهشة .  
«لكنك لا تعرفنى . . .» .

قلت مبتسماً وداخلى ينتحب على فقدان الأوقات ونفاذ معظم الرصيد .  
«لكننى رأيتك . . أبصرت» .

كانت تعنى ما تقول ، وكنت فى عين التحقق بما لفظته ، كل ما يمكننى الإحاطة به . ألم به فى البصة الأولى ، فإما نزعته . وإما مررت بمن رأيت مرور الكرام . ولأمرها تفصيل فيما بعد ، ذلك أن لها من الحمراء دقة قوامها وهشاشة حضورها .

أما مجد غورس فلم تكن إلا المستحيل الذى أبحث عنه وأحاول ، لا ريب فى جمالها الذى يلبى احتياجات شتى عندى ويتطابق ، قوامها ، حضورها ، طريقة إصغائها ، ثمة أمر فى نبرها ، حودة ، انعطافة مفاجئة مبللة بماء الورد والرضا فى صوتها ، خاصة عندما تجيب ، بالتحديد عبر الهاتفف .

فى ذلك الوقت المبكر كنت أول الجاهلين بى . أحيانا تكتمل معرفة المرء بنفسه من خلال الآخرين ، فهم كالمرآة ، يرونه من حيث لا يقدر ويصرون فيه ما لا يمكنه أن يرقبه فى نفسه ، ألم يتمنى كل إنسان أن يستمع إلى صوته . حتى إذا أصغى إليه عبر تسجيل ما ، وأعاد . ألا يداخله العجب إلى الدرجة التى تجعله يتساءل دهشاً : أهذا يصدر عنى ؟

أوربما يقول .

ما ظننت أن صوتى هكذا . .

لا يتعلق الأمر بالصوت فقط ، إنما بسائر الدخائل ، أعرف أن إلمام المرء بسائر ما ينطوى عليه مستحيل ، فكم من أمور تتداخل معنا ، وتسرى فينا ، ولن نلم بها أبداً ، إلا إذا بلغنا درجة يمكننا عندها فهم جزء من كل ، أو التقينا بمن يتفهم ما نحن عليه ، لكن . . هل من الأفضل أن يمضى الإنسان جاهلاً بما يكون عليه ، أم الأفضل بلوغ الاكتمال بدون الوعى بسائر المكونات والدقائق ؟

لا يمكننى القطع ، لكننى عندما سمعت صاحبة قديمة لى . تقول يائسة بعد لقائنا مرة أخرى ، ومحاولتها بعث ما كان .

«لم أنتبه إلى أنك تحب البعيد إلا الآن . .»

ثم أتبعته قولها هذا بندم فرانى فرياً .

«ليتنى لم أعرفك . .» .

تلك «لور» التى سردت أمرها فى كتاب التجليات فليطالعه من يرغب ، فقد ذكرت فيه دقائق ورقائق يصعب إيرادها مرة ثانية . ولى عودة إلى ما لم أبح به ولم أشير إليه من قبل . ليتنى أقدر على تفسير هديل الحمام ساعة الظهيرة ، وترجمة حفيف الشجر إذ تتخللها نسيمات غير منظورة ، وشرح القوة الدافعة لأمواج البحر ، والحقائق الكامنة وراء تدرج ألوان الشفق واختلافه عن حمرة الانبلاج ومطالع الشروق . أحياناً أمعن النظر داخلى لأفهم خارجى ، وكثيراً ما يأخذ

خارجي بيدي ليسبر بعضاً من أغوارى ودفائني . ولعلني بتدويني هذا أبلغ ما لم أصل إليه قبل أربعين عاماً أو أكثر، لعلني أجلو الأسباب، هكذا تحدد الأمد عند نظري إلى مجد ومصافحتي لها، ثمة ما يجمع النساء بالمدن، عندما أقترّب برّاً أو بحراً أو أحلق جواً متجهاً إلى الهبوط، من النظرة الأولى ألم بالمدينة في عمومها، وعندما أجتاز البوابات الحديثة من مطارات، أو محطات قطار أو موانئ، أنظر وأتعرف عن قرب إلى الطرقات والشوارع والنواصي، والمتاجر، وكيفية تقديم المطاعم مضمونها إلى زبائنها، تعينني المداخل المؤدية إلى البنايات كافة، ومنها أقرأ غير المرئي . الحذر أو الاطمئنان . الصد أو دعوة الداعي .

كما ذكرت، فإنني مقتنع، مقر أن الأمر كله يتحدد في اللحظة الأولى وكافة ما يلي ذلك تفصيل، هذا ما تحدد في مجد غورس، الاستحالة عينها هي، كانت حفيذة باشا قبطني، صعيدي، من أسرة عريقة محافظة، رغم وعيي الأتم بهذا لم أخف، ذلك أنني إذا توقفت لن تتحقق الاستحالة التي أسعى إليها وأرغب، لن تكتمل إلا بإخفاقي، أعرف أن هذا غريب . لكنني ربما أوضحت في المسار، فلأفصل إذن قدر الإمكان بين ما كان عليه الأمر زمن تحققه، وما أراه عليه الآن عند أستعادته .

لم يستغرق لقائي الأول بها إلا دقائق معدودات، ربما لم تتجاوز الخمس، بعدها اتجهنا إلى صالة المسرح القومي ذي الستارة الياقوتية الوثيرة، بدأ فضولي يتأجج . ما طبيعة الصلة بينها وبين صاحبي فنان السجاد المعروف؟ منذ شهور علمت أنه تقدم إلى خطبة زميلة لنا في

كلية الفنون التطبيقية، التي لم أتم دراستي بها. اسمها ثريا، جمالها  
خبر، وكانت هدفا لكثيرين، منهم زميل لنا ابن وكيل وزارة، أذكره  
كأنى أراه الآن بوسامته ورقته وتدخين السيجار ذى الرائحة النفاذة  
والذى لم يكن ذائعا فى ذلك الوقت. ما تبقى منه عندى مشيته ولطفه  
واقترابه الهادئ. إلى أين؟ ما الذى انتهى إليه؟ أين يسعى الآن فى  
الحياة الدنيا؟

لا أعرف، ولم ألتق به قط حتى عن طريق الصدفة، وإذا استدعته  
ذاكرتى فيرتبط دائما بشريا هذه بديعة التكوين التى لا بد أنها كانت  
بعيدة النظر، إذ أصبح زوجها منذ آخر السبعينيات من كبار رجال  
الأعمال والسياسة أيضا، وكثيرا ما كنت أسأل نفسى: هل جمع هذه  
الثروة من السجاد البخارى؟ من الأنوال الثلاثة؟

لا أدرى. طوال العرض المسرحى تلك الليلة لم أكف عن اختلاس  
النظر إلى الجهة التى جلسا فيها، محاولا التوصل إلى ما يربطهما من  
خلال نظرات كل منهما إلى الأخر والعبارات المتبادلة وخاصة  
إيقاعاتها، لكننى لم أقطع بشيء، ازدادت حيرتى عندما قابلته فى  
الاستراحة بمفرده، سألته عن كل شيء، إلا عنها فكأنى لم أرها  
بصحبتة ولم تبد اهتماما بكتابى ولم أقدم إليها عنوان مكتبى فى ربيع  
السلحدار بخان الخليلى لتفضل إذا وجدت من وقتها متسعا. ستجد  
نسخة موقعة فى انتظارها. كنت على وشك أن أطلب تحديد موعدا  
لكننى أثرت الكف، ذكرت فقط مواقيت تواجدى بالعمل، من  
التاسعة إلى الثانية، ومن الخامسة إلى التاسعة.



أحببت فترتى المسائية، تماما كما ظللت أشعر بالإمتنان لصاحبي  
ولسجاد بخارى ولمهارته التى دفعت والدتها إلى طلب ثلاثة أبسطة  
تمامًا مثل المنسوجة فى بخارى العتيقة التى بلغتها فى عام سبعة  
وثمانين، وجرى لى فيها ما دونته فى رسالتى عن الصبابة والوجد،  
أحببت ناصية المسرح القومى، وأضواء مصاييح الشارع والميدان وظل  
إنسان عابر لحظة رؤيتى لها، أما سترتها الجلدية بنية اللون فأمرى معها  
يطول كما طال مع مشبكها الخشبى المطعم.

جاءت إلى مساء، فى السادسة. فوجئت بعم إسماعيل  
الساعى يقف فى فراغ المدخل. يقول إن شابة مثل الأجانب تسأل  
عنى.

هى . . هى وليس أى إنسانة أخرى، أيقنت منها رغم أننى لم أرها  
ولم أتحرك من مكتبى لأرصد وأستمع بلحظة دخولها، لم أعرف  
نساء يشبهن الأجانب إلا هى كما رأها عم إسماعيل. لماذا لم أتوقع  
تانيا البلغارية التى تتقن العربية؟ زوجة الدبلوماسى الأول بعد  
السفير، كانت سيده شابة. تكبرنى بأعوام ثلاثة، ذكرت لى أنها  
ولدت قبل نهاية الحرب بثلاث سنوات، أما أنا فولدت يوم انتهاء  
الحرب. بالضبط فى التاسع من مايو عام خمسة وأربعين، خمسة  
وأربعين إنه نفس العام الذى ولدت فيه مجد، كان ذلك أول عامل  
قرب مشترك تلمسته، كانت تانيا ودودة، هادئة القرب رغبت فى  
زيارة أمى، وجاءت إلى بيتنا الضيق فى درب الطبلاوى ودعتنى إلى  
حفلة عيد ميلادها، وعندما مدت يدها تطلبنى للرقص دهمنى خجل

فلم يسبق لى معرفة الرقص قبل ذلك إلا فى السينما، وكان الاقتراب إلى هذا الحد مثيرا للحس بالنسبة لى . لم أكن أعرف بعد حرمة الرقص، وأنه فعل جميل . فيه الترميز أكثر من التصريح . لم أكن قادرا أيضا على التفكير فى تانيا كأثى، ألم أتعرف إلى زوجها؟ هى التى قدمتنى إليه، كيف يمكننى إذن؟ لا أشعر بنظراتى تطول وتنغمس إلا وأحيد على الفور، عندما أصرت قمت واقفا . مبتسما، مداريا جهلى وخجلى، أمسكت يدى، لامست خصرها فوقفت على نعومتها وبسببة قوامها، بعد لحظات داعبتنى قبل أن تكف «سألقتك دروسا فى الرقص» ولهذه العبارة تفصيل فى موضع آخر .

لم أتوقع تانيا لأنها اعتادت أن تهاتفنى قبل مجيئها، ولم يكن انتظارى مستنفرا إلا باتجاه أنثى مفردة . لم أتيقن من حضورها وإن تمنيته ورغبته، جاءت بعد ثمانية وأربعين ساعة تقريبا من لقائنا .

ستظل تلك الدهشة الأولى فى عينيها من معالمها التى لن تهن ولن تتغير كذلك قدرتها على إبداء التعجب، وملاحظات الخاصة بى، حتى ذلك الحين، وقت سرورى بعامى الرابع والعشرين لم أعتد ملاحظات خاصة تبديها إحداهن حول أمر يصدر عنى أو يخصنى . أثناء حديثى عن ربيع السلحدار ومضمونه وعمقه فى المكان . رفعت أصبعها ضاحكة مقلدة إشاراتى، توقفت، هل ارتكبت خطأ؟ حتى ذلك الحين لم أعرف دقائق العلاقة بين رجل وامرأة، كيف يجب أن أتصرف عند اللقاء؟ اعتدت المشى أمامهن ولكننى أدركت أن التصرف اللائق يقتضى بالتأخر عنهن وإفساح المجال لهن . فوجئت

بها تقول إن إشارة أصبعى غريبة، وأن يدي تعبر عما أقول، ثم قالت . . .

«إنها مليئة بالحياة . . .»

لم أعرف كيف ينبغي أن يكون الرد، غير أنني انتبهت لما يصدر عني، وعندما أتطلع إلى يدي أشعر أنها ترقبني مبتسمة من مكان ما، الحق أنها تراني خفية منذ لقائنا أمام المسرح القومي، هكذا أصبح لكافة تصرفاتي إيقاع، وإطار، هي بذاتها، بوجودها، سواء كانت قريبة أو بعيدة، حتى عند سفرها بمفردها إلى مرسى مطروح، ذلك السفر الذي أدهشني في البداية، إذ كيف تسافر بصحبة أصدقائها وصدقاتها، مفردة هكذا؟ حتى في ابتعادها كنت أوقن برؤيتها لي، أنها تطل عليّ من مكان ما، لذلك اعتدت التوفيق في كافة ما يصدر عني، بدءا من مشي في الطريق إلى تأمل عناوين الكتب المصفوفة في مكاتب سور الأزيكية . إلى درجة صوتي عند النطق .

حدثني عن حيرتها في الوصول إلى مقر الجمعية التي أعمل بها، إنها تتردد على خان الخليلي وتعرف بعض العاملين في المعارض، لكنها لم تتصور وجود هذا العالم الخفي في الطوابق الثانية من مباني الخان العتيقة . حدثتها عن الحرفيين المهرة في نقش النحاس وتطعيم الصدف وصباغة الجلود ورفى السجاد، وتحويل النحاس إلى مشغولات شتى بدءا من المقابض إلى الفوانيس والأطباق، دعوتها للتعرف على حضارة بأكملها تهددت بالاندثار بعد هزيمة يونيو وغلقت قناة السويس وتوقف حركة السفن وقلة السائحين، الحقيقة أنني كنت

أهدف إلى مد الصلة ، إلى تكرار ظهورها في المجال ، إلى الاقتراب  
منها لعل وعسى !

من الصعب استعادة كافة التفاصيل رغم أهميتها . لكنني أنظر إلى  
مرات إصغائها لي وتدرج النظرات وتنوعها ، من ملامح لا يمكن  
استنتاج أمر محدد منها إلى لوح الود وعلامات الراحة إلى القربى ،  
حتى تطلعها الهادئ ثم توليتها البصر أرضاً وتصريحها .  
«أنت عزيز قوى على . . .» .

هذه الكلمات الأربع شغلتنى وقتاً ليس بالهين ، لم أفصل بينها  
وبين الوضع الذي اتخذته ، ميلها قليلاً إلى الأمام . وابتسامتها الهادئة  
المصاحبة ، أما لهجة الصوت ودرجته فتنبئ بنطقها المفاجئ أثر تفكير  
مع أن أهم ما لفت نظري عندها بساطتها واتجاهها مباشرة إلى القصد  
وخلو معانيها من الظلال ، لماذا ترددت قليلاً قبل أن تفصح ، وماذا  
تعنيه بلفظ «عزيز» ، عندما تنطق إحدى جاراتنا كلمة عزيز في حارة  
درب الطبلاوى ، فذلك يعنى الميل والهوى ، يندر استخدامهن لكلمة  
حب . يقلن على سبيل المثال «دا غالى على قوى» ، «دا الوفق الللى  
بينى وبينه مايتوصفش» . كلمات دالة على المحبة والأخوة والقرب ،  
في حارتنا المرأة تنادى زوجها «يا أخويا» ، هل يتضمن ذلك ميراثاً  
قديماً منحدر من العصور الأولى ؟ ربما . لكن بالتأكيد تتسع دلالة  
الأخوة هنا إلى ما يتجاوز معنى الأشقاء . تصبح تعبيراً عن الرفقة  
والصحبة والألفة والآلاف .

ماذا تعنى خريجة الميردى ديبه ، التى تتحدث مع والدتها

بالفرنسية، وإلى صديقاتها وأصدقائها الذين أتبع لي أن أتعرف على بعضهم؟ ماذا تقصد عندما تقول كلمة «عزيز»؟

كل حرف يصدر عنها أخضعه للتأويل والتفسير، حذرى وخجلى وحرصى، ألا أتجاوز حال بينى وبين البساطة التى كانت تتصرف من خلالها. كنت فى مواجهتها أرتدى أقنعة شتى، أسألها عن صديقاتها وقصدي الحقيقى الوصول إلى الاستفسار عن أصحابها من الذكور، حتى إذا بدأت الحديث عنهم لا أسمع فقط، إنما أشهر حواسى كافة لأرصد علامات الخصوصية المتعلقة باسم معين، كان يمكن أن أتجه إلى هدفى مباشرة، لكن لم يكن لدى علم بتلك الطرق، كما أد خجلى الذى جبلت عليه يحول بينى وبين ذلك. إضافة إلى خشيتى فقدتها، أن تغضب، أن ترى فيما أقوله أو أستفسر عنه فجاجة، كنت دائم الخوف من خطأ ما، خطأ لم أقصده، لم أعمد إليه، لذلك لزمته الحذر الشديد. وأتبع التقية، أن أبدو مغايرا لما أنا عليه بالفعل. لم أكن فى مواجهتها أنا، بينما كانت هى صريحة، واضحة كالصيف فى سماء جنوبنا، وربما ازداد غموضى فى مواطن بعينها. عندئذ تتطلع إلى حائرة وتسالنى عما أقصده فأفسر ما قلته بما لم أقل وهكذا يشق على الأمر.

كنت نزاعاً إليها ولا أنتظر منها شيئا محددًا، أرغب فى حلول مواعيدها، وأتأهب للقياسها، وأتفنن فى اقتراحاتى لدعوتها إلى أماكن أعرفها ولا تلم بها. أو كتب أحببتها ولم تطالعها. إلى أن بدأنا فى جلساتنا الشعرية، جاء الاقتراح منى. أن أقرأ عليها ما توقفت عنده

من أشعار قديمة . مما اعتدت عليه أن أبدا يومى بالشعر ، أصحب  
شاعرا واحدا المدى ، حتى أستوعبه وأنفذ إلى خباياه وأقف على  
دقائقه ، إذا أعجبنى شيء أقدم على نسخه ، أتأنق فى رسمه موهما  
نفسى أننى أبدعه أثناء كتابته ، وأحيانا يبدو لى خلال النقل ما لم أصل  
إليه بالقراءة .

أعددت ما تجمع لى عبر سنوات ، رحلت أتلو بصوت عال  
ما ستسمعه منى ، مختلف تماما قراءة ما أعجبنى لمن أعشق ، بعض  
المعانى ، سيشى صوتى بقصدى ، إياها أعنى .

تحمست واقترحت مكانا هادئا ، قالت إنها تتردد عليه أحيانا خاصة  
فى الأيام الصيفية إذ يبلغ الحد ذروته وتضطر إلى البقاء وسط البلد  
لارتباطها بموعد أو لترتيب مسبق .

سيصبح هذا الفندق دالا على حقبة ومرتبطا بها ، الحق أننى لم  
أقصده بعد سفرها الطويل إلا مرة لكننى لم أجده . تبدل تماما وندمت  
لأننى طرقتة مرة أخرى . كان ممكنا أن يحفظ أوقاتنا لو أننى لم أعد  
إليه . لكننى لا أستعيده الآن من خلالها إلا وتتداخل تلك المرة  
الوحيدة مع أوقاتي فتفسد وتخلخل .

يبدو من الخارج كأنه إحدى بنايات لندن التقليدية . طوب أحمر  
قاتم ، نوافذ من خشب سميك ، مدخل مفروش بالسجاد يؤدي إلى  
الطابق الأول حيث الصالون الوثير ، مقاعد الجلد المريحة ، لون  
الجدران . سبق أن وصفته وصفا دقيقا فى أقصوصة سطرتها بدافع  
الحنين معنونة بالبهو فليطلع عليها من يرغب .

صار مكان لقائنا بمفردنا، لم يأت بصحبتها أحد، ولم أخبر أصدقائي به. كانوا كثيرين في تلك الفترة. في تلك السنوات كنت أفيض بالنشوة، لا أدخر الطاقة، أشهر ما عندي على من أصحاب. هكذا قدمتها إلى سائر معارفي، ارتبطت بصلات جميلة سبب لي بعضها شكا وحيرة وبلبله خاصة في مرحلة تلمسى عالمها ومحاولتي الوقوف على خصائصها. لكنها والحق أقول حرصت دائما على تأكيد خصوصية ما يصل بيننا. في نهاية أي سهرة توجه الكلم الطيب المصحوب بالنظر إلى، تسألني عما إذا كنت سابقى أو أرحل. وبالطبع أتأثر لأنها تتجه إلى، لم يحدث قط أن خصت غيري بمثل ذلك، بالطبع أنصرف معها إلا إذا كانت بصحبة صديقة أو صاحب من جماعتها، أما لو كنا في مقهى الفيشاوى القديم، فإننى أمشى إلى جوارها حتى سيارتها الرمادية من طراز بيجو العتيق، المنتج في نهاية الخمسينيات، كانت كبيرة الحجم، متناقضة مع حجمها النمنوم، تبدو خلف المقود كأنها طفلة تقود قاطرة، غير أنها كانت ماهرة، ما زلت أحفظ أرقامها الخمس، ولون مقاعدها، في هذه العربة اتجهنا بمفردنا إلى مطعم السمك اليونانى القريب من الأهرام. وإلى مطعم ريفى على طريق سقارة أصبح بأطباقه وحديقته الريفية وبنائه القديم معلمة من المعالم المنتسبة إليها والتي لا أذكرها إلا وتبرز من أفق الذاكرة بحضورها الوسيم، أو يلوح أحد تلك الأمكنة من خلالها، أشير هنا إلى المكتبة الفرنسية بوسط المدينة.

كانت محلا للقاءاتها بأصحابها. وكانت تقف كبايعة أحيانا عند غياب المديرية التي لم تكن إلا محورا للصحبة، في هذه المكتبة رأيت

فوزى لأول مرة، قامته الطويلة، وابتسامته الساخرة ولا مبالاته المقصودة. ثمة مكان تناولنا فيه العشاء مرة واحدة لكنه بقى معى حتى الآن رغم اختفائه منذ سنوات طويلة، مطعم صغير فى عمر مؤدى إلى مسرح إسماعيل يس المثل على شارع سليمان باشا والذي أصبح اسمه طلعت حرب. لكن الناس ما تزال تذكره باسمه القديم حتى الآن. تماما مثل شارع فؤاد. إلى مائدة صغيرة مفروشة بغطاء مربعات أحمر وأبيض وجلسنا، طلبت لسانًا مطهيا فى مرق البروفينسال، أعجبنى الاسم، وأعجبنى أكثر طريقة شرحها لما اختارت، وكان النادل النوبى ودودا، رقيقا حانيا علينا، مرة واحدة فقط. فى تلك الليلة أصرت على دعوتى، المرة الأولى التى تدعونى فيها أنسى، شرحت لها استحالة ذلك بالنسبة لى، كيف تخرج النقود وتدفع، بينما أجلس أمامها صامتًا؟ قالت جادة.

«إذن . . أنت لا تقبل دعوتى . .»

خشية الوقوع فى الخطأ، وافقت صامتًا. إلى تلك الأماكن أنتسب وإليها أحن وأهفو، بالتحديد هذا الفندق إنجليزى الطراز، كما يلوح فى ذاكرتى وليس كما رأيته عند عودتى بعد انقطاع.

أويقات لقائنا الثالثة أو الرابعة، كانت دقيقة جدا فى مواعيدها، لا تتأخر ولا تتقدم، ومن ناحيتى كنت حريصا على أن أستقبلها، أن تجيء فتجدنى متطلعا، ترانى منتظرا. لم يحدث قط طوال لقاءاتنا أن وفدت واضطرت إلى البقاء بمفردها، قبل توجهى إليها أتأهب متمهلا. بل إن ذروة راحتى عندما أغمض عيني وأراها آتية من كافة



الجهات، متهلة، مقبلة، أفضل اللحظات عندي دخولها وسعيها تجاهي وابتسامتها العريضة، كذلك إصغائها وإيماءاتها المختصرة السريعة، المصحوبة بأهة اهتمام وإنباء بتركيزها وإدراكها، أيضا عندما تبدو دهشتها ترفع حاجبيها وتزدادة لمعة عينيها، مع نطقها آهة طويلة ممتدة لم أعرف لها مثيلا، وهذا كله منها لم أره متكررا، ولم ألمح منه قبسا في هذه أو تلك من اللواتي مررت بهن أو مررن بي. ربما لمحت شيئا يذكرني بأمر منها، لكنه ليس هو بالضبط. لا تتطابق عناصر التشابه إنما توحى كل منها بالأخرى، تماما كما أدركت فيما بعد انتسابها إلى الحمراء، لكنني لم أحدد بالضبط حتى الآن ما يمكنني اعتباره متشابها. لذلك ظننت لسنوات طويلة أنها مرجع مستقل بذاته، منقطع عما قبله، مفرد، وهذا صحيح من ناحية خطأ من جهة أخرى كما سأوضح ذلك في حينه.

أقول إن جلسائنا تلك من بواعث حنيني. ومراكز استقطابي، خاصة إصغائها إلى ما أقرأه من أشعار، كثير منها يترجم حالي، لذلك يشملني التهدج عند تلاوتها ويتموج صوتي، وعندما تبدأ قراءة الصحف الفرنسية لي أصغى قامعا مشاعري حتى لا تبدو على ملامحي. أظاهر بإبداء التعليقات على مضمون ما تترجمه مباشرة لي، معظمه حول الموقف من العرب وإسرائيل، والصراع المحتدم وقتئذ عقب هزيمة يونيو المنكرة، وحرب فيتنام، وتداعيات ثورة الطلبة في فرنسا، وحركات الشباب في البلدان الأوروبية والولايات المتحدة التي شهدت حركات احتجاج ضد التورط في فيتنام. غير أنني كنت أصغى إلى صوتها في ذاته واهتمامها بترجمة ما تقرأه

مباشرة من أجلي ، هذا تخصصى به . لفتت جلستنا وانتظام ترددنا ،  
رجل نوبى متقدم فى العمر يؤدي الخدمة بأصولية رفيعة ، حتى طريقة  
صبه للقهوة فى الفنجان الأبيض الناصع ، وأدبه الجم عندما انتبهت  
يوماً إلى وقوفه خلفى عند قراءتى شعراً لأبى نواس .

صَلِيْتُ مِنْ حُبِّهَا نَارَيْنِ : وَاحِدَةً

بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

وقد حَمَيْتُ لِسَانِي أَنْ أَبِينُ بِهِ

فَمَا يُعْبِرُ عَنْهُ غَيْرُ إِيمَانِي

يَا وَيْحَ أَهْلِي أَبْلَى بَيْنَ أَضْيَانِهِمْ

على الفراش وما يدرون ما دأى

لو كان زُهْدُكَ فِي الدُّنْيَا كزُهْدِكَ فِي

وَصَلِي ، مَشَيْتَ بِسَلَا شَكِّ عَلَى الْمَاءِ

«الله . . الله يا أستاذ ، أعد من فضلك . . .»

منذ تلك اللحظة صار جزءاً من القعدة حتى وإن لم يلزمنا ، يلبي  
نداء هذا وينجز طلب ذاك ثم يجيء إلينا ، يحتفظ بمسافة قصيرة . ما  
أن أشرع فى القراءة حتى يومئ مغمض العينين ، لا يكمل من ذاكرته  
تأدياً . يحفظ ديوان المتنبي وشروحه . عصر يوم لا أذكر اسمه كنت  
أنتظر عند المدخل . مجد تتحدث فى الهاتف ، اقترب منى الرجل  
أبوى الملامح ، قال بلهجة الناصح الأمين المجرب .

«معك جوهره وتقدرك . . . حافظ عليها وارعها . . .» .

أولانى ظهره، بعد أن صحبتهأ حتى مدخل المكتبة الفرنسية عدت إلى مقهى الفيشاوى لأدخن النرجيلة فى ركن منزو اعتدت اللواذ به عند رغبتى فى الانفراد وإمعان التدبير لتأمل ما استعصى على فهمه .

استعدت كلمات الرجل بتأن، ما زلت أحفظها وأعى إيقاعها حتى الآن ونبرات الصوت، الطريقة التى أنصرف بها كأنه أفضى إلى بضمون برقية . وصفها بالجوهرة، وهذا سداد حكيم، وإن رأيتها غير ذلك فالجواهر جماد، لكنها حياة مشعة ورقة هفهاقة، سارية، لكن- لماذا استخدم كلمة «التقدير» ولم ينطق بالحلب، أو ما يعنى الهوى؟

هل قصد بقوله هذا أنها تحترمنى ولا تحبنى؟

لا أدرى .

ثمة طرق شتى للتعبير عن تلك العاطفة والفاظ يستخدمها القوم، مثل «الأفق»، «الميل» وغيرهما، أما التصريح مباشرة بالحلب فمن تأثير السينما، كثيراً ما أصغيت إلى لجوى ليلية يتبادل فيها زوجان الوداد بعد عناء نهارى، واطمئنان إلى وفرة الزاد وهدوء الأولاد فى سباتهم .

«أنا بأعزك قوى . . .»

الحق أننى لم أعرف كيف أعبر عما عندى، شرعت فى سلوك سجيتى والتوافق مع ذاتى، لكن ظروفًا عديدة حالت، منها ما أدركه مثل اعتمال أمور داخلية لم تبد قط ولم تلح لمن أتواصل معهم، كذا

خشيتى من الخطأ مع الذين أنزلتهم مقاما عليا، وحذرى أن أسبب ضيقاً أو المألن أجل وأبجل . أما ما لا يمكنى تعيينه أو حصره فغامض أمره، غير مدرك لى .

يظل لمجد خصوصية عندى . إنها أول أنى أقاربها وأحاورها وأفضى إليها وأصغى منها مباشرة، كل ما مررت به قبل ذلك عشته بينى وبينى باستثناء الحمراء التى لم أخف نزوعى المبكر وميلى إليها، لم أستوعب بعد ما يجب أن يُقال وما لا يجب . ولم ألزم الفروق بين المذكر والمؤنث، كنت طفلاً أتلقى وأرسل على الفطرة، تطلعى إلى الحمراء ورموقها لى، ابتسامتها، ذلك التناغم فى عينيها . والهدوء وتلك الدعابة، أما رائحتها فطال بحثى عنها وتوقى . كان لا بد أن يمضى أكثر من نصف قرن لأصل حداً أستوعب عنده الأمر وينجلي لى . ما سعى كله ومكابداتى إلا اقتفاء لأثرها، ومحاولة لتنسم عبيرها ولحظات اكتمالها وتمام مثلها، أشير إلى الحمراء التى عرفتها طفلاً . أما تلك التى رأيتها وصافحت يدها الخشنة عام خمسة وستين . عند بلوغى العشرين وعبورى ليلة بجهينة مسقط رأسى فلا أتوقف أمامها ولا أستعيد ملامحها إلا إذا قصدت التأسى وإبداء الحسرة . أقول ذلك متعجباً لأنها هى ولكنها ليست هى أيضاً، هذا أمر دقيق لعلى أفصله فى تدوينى هذا عندما يتوافق حالى وأرى ذلك ملائماً .

ما يحيرنى حتى الآن عسر أمرى مع مجد، ويأسى المقدم . منذ البداية لم أطمح إلى أن تبادلى العشق، منذ شروعى اعتبرتها

مستحيلة، كل الظروف تحول دون التلاقى، رغم ذلك بدا منى اندفاعات لم أستطع منعها ورهوجات لم أقدر على كبحها، ونفى وإثبات معا.

أمرها استمر معى ومازال كأنه ندب فى روحى قديم، أخضعتنى للتمعن والترحال داخلى، لم يكن لى من الأمر شىء فى ذلك الحين، أعنى التجربة، والدربة، ومعرفة إشاراتهن وأحوالهن الدقيقة، يمكن القول إن تعاملى مع صورة مسبقة أكثر مما تعاملت مع واقع مائل. بل لا أخشى المبالغة إذا قلت أن كل من عرفتهن رجّع وترديد لمثال تكون عندى فى السنين الأول، لكم تحسرت لأن الأسباب حالت دون تمام الوصل، وعندما جرى ذلك فيما بعد كان الوضع قد تبدل. ما يدهشنى أننى لم أشعر بأى رغبة حسية ولم أشرع مرة واحدة فى لمس أطراف أصابعها أو الطواف بمواقعها الأمامية. فى عين الوقت كنت أتردد على بيت فى شارع الشيخ قمر بالعباسية، صاحبته عجوز، بدينة، ملاحظتها القديمة مطلة عبر عينيها المكحولتين، لا تفارق مقعدها الوثير، خلفها جدار مغطى بالصور الفوتوغرافية لمصريين يرتدون الطرايش، وأتراك ذوى شوارب وضباط وجنود احتلال بريطانى. لم يخلُ بيتها من أننى منتظرة. عرفنى عليها صاحب مجرب، جلست إليها، أصغيت إلى استعادتها لحظات الهناء من عمرها المديد، وما حفل به من أمور غريبة، فريدة. مع رجال راح معظمهم الآن، أغلبهم من ضباط الإنجليز، بعد وقت معلوم تنادى، تجيء من الداخلى أننى منتظرة، تقدمنى إليها، توصيها على وتوصينى بها، تقول إننى عزيز عليها جدا. كلهن عاملات فى

متاجر قرية أوربات بينوت . الوقت الأمن من العاشرة إلى الثانية ظهرا . لاقيت من بعضهن حناناً ورغبة لم أعرفها مع من بادلتهن الود ، لكننى لا أقدر أن أكف إلا بذكر ما لا أقدر على كتمانها ، ذلك أن السيدة ضحكت يوماً بخلاعة أولى أججتنى وأكدت لى أن أمرها لم يهن ، وأن تحت رمادها البادى جمرة تواقه إلى نفخة حيوية ، قالت إن أفندياً محترماً ياتلنى عمراً ، يتردد عليها منذ عامين .

«يا سلام يا ما اللى يعيش يشوف . . .» .

بعد تردد منتظم ، وحسن معاملة وأدب ، فوجئت به أول أمس يقترب منها ويقول لها خجلاً إنه يرغبها هى ، ولا أحد غيرها . مع أنه كان ينفرد بمطلقة شابة طرية كالخس ، صغيرة وحلوة يتمناها أى ذكر ، لى كل ما تحتاج إليه ، ضمن لها الحرير والقطن والكستور ، كل ما لمحت إليه أو صرحت ، بشرط ألا يقربها آخر ، بالفعل أوفت ، ومن ناحيتها هى خصصت لهما مواعيد لا يأتيا خلالها أى من المترددين عليها . بلغ الوداد بينهما توقعها ارتباطهما على سنة الله ورسوله ، عرفت حالات كهذه لو أخبرت بها لما اقتنع أحد ، ربما لا يصدقها إذا قالت له إن الراقصة المشهورة التى تلقب الأولى الآن كانت من المترددات عليها ، من يومها وهى فائزة ساخنة ، رغم الفقر وقلة التغذية ، فى يوم رآها صحفى اعتاد زيارتها والراحة عندها . خلاها ثلاث ساعات ، وبعد تمام هذا الوقت غير العادى ، خرج كما ولدته أمه ليقسم بصوت مرتفع ، متأجج ، أن هذه البنت لو داست البيت يقدمها بعد الآن سيخرجه على من فيه ، لقد أصبحت زوجته منذ الآن ،

كان منظره مخيفاً، يرهب أشد القلوب، خافت منه، لكنها هدأته  
ضاحكة، هل يهددها بدلا من أن يشكرها، ألم تجمع بينهما، ألم تكن  
سبباً فوجئت به ينحنى على يدها، يقبلها ويردد.

«كتر خيرك يا نينة . . .»

تزوجها بالفعل، وأمضى معها سنة، لم ينجب منها، لكنه ولى  
نعمتها بحق، فهو أول من دفع بها، وجعلها تظهر في السينما، رغم  
أنه كان يغار عليها من ظلها، لكن يبدو أنها اشترطت عليه ألا تترك  
الرقص، قالت إن العكروت الآخر، بدلا من أن يتم مشواره مع  
البنية، فوجئت به يطلبها هي . كانت عيناه زائغتين حتى أنها خشيت  
على نفسها منه .

سألها مبتسما .

«وحصل يا نينة . . .»

ضحكت منطلقة حتى أن شجرة مغناجة أطلت لكنها سرعان  
ما قمعتها .

«كلك نظر يا عينه . . .»

«نينة» تلك، القوادة العجوز، شبه المشلولة، موازية لمرحلتى  
الأولى مع مجد، كثيرا ما كنت أتردد قرب الظهيرة على بيت «نينة»،  
وأخرج منه إلى بهو الفندق العتيق، إلى مجد، ولأن «نينة» كانت  
مغرمة بالتوفيق والتألف، فقد استقر أمرى على ثالث من عرفتنى  
بهن، اسمها نجاة، فى الثانية والعشرين، مرمية الجسد، لم أعرف

حضوراً مصقولاً مثله، أما تضاريسها فدليل، غير أن ما قربنى منها عشقها الحنون، المطلع، لها ضمة استعدتها مراراً فيما بعد، وأنامل تعرف مواطن الإثارة، أما صوتها فلا يعادله فى التأثير إلا استجاباتها الوقورة، المؤثرة، لأنها أبدت انتفاضات لم أعرفها من قبل إذ تبلغ ذروتها، كنت أهدئ حالى، وأطيل أمدى حتى تأتىنى رجرجاتها، ويداخلنى زهو لأننى مبتعث هذا، ثم أقفو أثرها، كثيراً ما قالت .

«نفسى . . تخلص معايا . .» .

أستعيدها بمودة واحترام ورغبة، وأجهل ما انتهت إليه أحوالها مع زوجها صانع الحقائق الجلدية . كان يكسب أحياناً عشرين جنيهاً فى اليوم الواحد، ولا يبقى منها مليم إلى اليوم التالى، يهوى السينما، إذا دخل بمفرده يأكل السميط مع اللبن المعقم، ويدعو كل من يجلس إلى جواره، ولو معه كفاية من المال ينفقه على الحاضرين، إنه كريم يعود بفأكهة الموسم، والبط والحمام، لكن عندما يتوقف عن العمل يشرفون على الموت جوعاً . إنها تخاف الغد، لا تأمن معه أبداً .

«بتبسطنى معاه . .» .

تطرق، أهفو إلى خجلها . أضمها أئثم شعرها، بعد دقائق تجيبنى وهى تتطلع إلى جهة مغايرة .

«بيحب نفسه . .» .

ثم تتدارك أمرها .

«لكنه طيب وابن حلال . .» .



وضعها المائل عندي، جلوسها في الفراش . اتكأ ذقنها على ركبتيها، تحيطهما بذراعيها، عندما تباعدت بنا السبل كان وضعها هذا من أسباب استنفاري، لو فصلت لزيد الأمر عن الحد . وربما احتاج الأمر إلى تدوين يخص أولئك اللواتي عبرتهن ولم أقم . أو اللواتي وردن على مناماتي، وكن أسبابا لسكب مائي بين عالم المجهول ودنيا الحس . ولهذا تفصيل وتعمق . غير أن مايعينني الآن ازدواجية أموري وقتئذ، بل إنني أذكر جلوسي ذات صباح إلى صديق حميم يكبرني في العمر، يتقدمني بمسافة ليست بالهينة، قدمت مجد إليه، عرفتهما ببعضهما، لاحظ ضيقي وتلملي، سألتني عما أكابده، فأفضيت إليه بما ألقيه معها ومنها، فوجئت به يسألني :

«تنت معها؟» .

«لا . . .» .

بدا متعجبا :

«تقول إنك تحبها؟»

«طبعاً . . .» .

«كيف لم تقربها حتى الآن . . ؟»

«لأنني أحبها . . .» .

«لن يكتمل حبك إلا بمضاجعتها . أن تعرفها وتعرفك . . .» .

يبدو أنه لاحظ عدم ارتياحي .

«هل غضبت؟»

حاولت أن أحيّد صوب وجهة أخرى .

«الحقيقة أنها تحب شخصاً آخر . . .» .

تطلع إلى بنظرة جانبية ، فيها تساؤل ودهشة لكنه لم ينطق ، ربما أراد الاستفسار عن مسبب تواصلها معي ، وأنتظام لقاءاتنا ، وتلميحاتها المقتضبة إلى منزلي عندها ، وإبدائها الملاحظات على ما يخصني ، ربما أراد القول إنها بحرصها على إنما تستنفر مشاعر شخص آخر . ربما أراد النطق بهذا كله . بصميم ما يجول عندي . خاصة أنني تأكدت من خصوصية علاقتها بفوزي ، المعيد الشاب بكلية الهندسة ، المتخصص في تصميم الطائرات ، والمرشح لبعثة دكتوراه إلى المجر ، هذا ما عرفته واستوثقت منه بعد أن تقصيت أحوال المحيطين بها ، المقربين منها ، في البداية ظننته عمر المذيع في البرنامج الأوروبي ، كان ودوداً ، مقبلاً على الآخرين ، مظهراً التواضع ، راغباً في الصلات ، ربما ظننت لتبادلها القبل ، كانت المرة الأولى التي أرى أحد أصدقائها يمس وجنتها الرهيفة بشفتيه . عادة لم أعرفها حتى ذلك الحين ، جرى ذلك في المكتبة عند دخوله . لكنني لاحظت ذلك بالنسبة للآخرين . قبلات مثل المصافحة . لم أشرع قط لخطي ، وإن أتقنت ذلك فيما بعد ، فيما تلى ذلك من وقت بعيد ، عندما جاء عمرو ترافقه السمراء ، السريحة ، فرسية القوام والطلّة ، قدمها قائلاً إنها خطيبته . أقصيته عن ظنوني . الغريب أنها لم تذكر فوزي هذا إلا بشكل عابر ، جاء إلى الفيشاوي بمفرده ، وقبل إحاطتي بما بينهما نفرت منه ، ربما لنظراته اللامبالية وتعليقاته الساخرة من أي رأي يُبدى على مسمع منه ، وربما

لأنه صافحتني بتحفظ ، عندما قدمتنى إليه أيقنت أنه هو ، خاصة عندما سلمت إليه مفاتيح سيارتها . وطلبت منه أن يسوق لأنها متعبة ، انصرفا في الثانية بعد منتصف الليل ، وجاهدت كي لا يلوح أثر لفضولي . أين سيمضيان الوقت حتى الصباح ، كنت موقنا أنهما متلازمان ، كانا يتصرفان كقرينين ، متلازمين ، لماذا أدفع بنفسى إلى خسارة مؤكدة؟ لأيام عديدة تردد السؤال فى وعى بالصمت والنطق ، ولم أعرف أقوى دوافعى إلا بعد فوات الذروة .

لماذا أسعى وراء المستحيل؟ لماذا ألج منافسة غير متكافئة؟ ماذا أريد منها؟ هى له وهولها . إنه من أسرة قبطية عريقة اشتهر أفرادها بالعمل فى القضاء والمحاماة ، أما هو فكان علمى الميل ، لم يقبل على قسم هندسة الطائرات إلا عدد قليل جدا من الطلبة ، كان معظمهم يتجه إلى الهندسة المدنية أو الميكانيكية ، لم تكن أهمية الاتصالات بدأت بعد ، قالت محدثة عنه إنه عبقرى ولديه طموح كبير فى مجال هندسة الطيران ، وأنه يرى المستقبل لهذا التخصص ، حتى وإن ضاقت سبله هنا ، قلت معلقا .

« هذا يعنى أنه سيعيش بعيدا عن مصر . . » .

تطلعت إلى بعينيها الخضراوين ، بالعينين الذين سأكتشف أننى أطلت التحديق طويلا إليهما ، وأنهما مركز استعادتى لها فى الذاكرة ، منهما تبدأ وتكتمل ، هكذا ، لا أنطق اسمها ، ولا ترد على إلا وتلوح نظرتها أولا ، تلك البصمة التى كانت تجسد أمامى طلة أخرى ، غير أننى لم أنتبه إلا بعد فوات الوقت وانتهاء الأوان .

«لكنك قلت أكثر من مرة أنك لا تتخيلين نفسك بعيدا عن مصر . . .»

«طبعاً . . . لكن هذا لا يمنع قضاء مدة للدراسة . . . للتجربة . . .»  
تطلعت إلى مباشرة .

«المهم أن يعيش البلد داخل الإنسان . . . هل تتصور أن كل إنسان هنا يعيش في مصر . . . أعرف كثيرين هنا، لكنهم هناك بعقولهم . . .  
بأمزجتهم . . .»

تصاعدت حديثها، قالت إنها تلاحظ عدم مصارحتي لها بما أفكر فيه، وإنني أقول أشياء لأخفي أخرى، قالت إن هذا مرهق لها . مرهق جدا . . .

«تعرفين حرصى عليك، تعرفين أنني لا أقصد إزعاجك وليس إيلا مك . . .»

«إذن كن صريحا معى . . .»

لزمت الصمت، تمنيت انتهاء اللقاء، رغبت الانفراد حتى أستعيد ما توجهت به إلى، لم أعتد منها تلك الحدة، حتى إذا بدأت لا أعرف كيف أواجهها، كيف أرد عليها؟ لم تنه قعدتنا، إنما راحت تتطلع إلى وأنا أحييد بعيني، وعندما سددت نحوي سؤاها عما أفكر فيه الآن، الآن بالتحديد، قلت على الفور إننى أفكر فى مصارحتها بكل شيء غدا فى الخامسة، قالت، ولماذا لا يكون ذلك الآن؟ طلبت منها أن تتحملنى وألا تقسو علىّ، مالت إلى الأمام . لمست يدي بأطراف أصابعها، قالت بهدوء رقيق وحنو بادية . . .

«أنا لا يمكن أن أقسو عليك، أنت إنسان طيب . . لكنك غير صريح معي . . .» .

«غدا، فى الخامسة . . .» .

«يعنى لن نتكلم الآن . . .» .

«غدا . . .» .

تراجعت إلى الوراء قليلا، ناديت صاحبتنا النبوى أسأله الحساب .  
«يعنى نقوم؟» .

لم أجبها، قبل بلوغها مدخل المكتبة توقفت .

«غدا . . الخامسة . . .» .

قالت مبتسمة

«داخلك دكتاتور . . .» .

أفسحت الخطى، أويت إلى ركنى القصى فى المقهى أتدثر برائحة الدخان، وأسلو بالنظر إلى قرقرة النرجيلة وفقايق الهواء فى المياه، يمكننى استعادة لحظات البوح، تلك العلامات الفاصلة التى يتوقف فيها الطرفان ليقول أحدهما للآخر حقيقة ما يشعر به، أحيانا تكون لحظة اعتراف، وأحيانا مكاشفة هادئة، وفى حالات أخرى مجرد كلمة بعد تمهيد معقول . ولو أننى فصلت لطال الأمر وخرجت عن القصد، لكننى ربما أفرد فصلا خاصا بمنطوق بوحى هذا، لماذا لم أفض إلى مجد فى اللقاء عينه؟ لماذا سيطرت على فكرة اليوم التالى .

وفى تمام الخامسة، مع وعيى بأنها يمكن أن تعتذر أو تقص نفسها عنى . أو تأتى تصرفا مفاجئا، عصبيا يصعب معه أن أبدى رد فعل مضاد؟

إنه التدرج، إنها المراحل التى ينبغى قطعها قبل الوصول، عندما أخلو بمن رغبت أطيل التانى، أفضل الملامسة، ثم التجرد مما يحجب المعالم والتضاريس على مهل، أوثر أن أودى ذلك بنفسى، هذا ما نما معى واكتمل عبر ترحالى، قبل نطقى أردت أن أقص عليها طرفا من خيرى، أن أبسط حالى، بالضبط كما أراه وقتئذ، كما أجد نفسى . لكن أحقا كنت أعرف عنها ما يجب أن ألم به؟ مع الوقت أدركت أن أمورا جمة لن تتكشف حتى لمن يعنيه الأمر، لصاحبها، لمحورها، وأن الرحيل النهائى سيتم ومغاليق كثيرة ستفرض، وأن ما نعرفه ليس إلا بعضا من كل، بل ربما تكون تلك المعرفة مجرد تصورات، اقتنعنا بأنها يقين، وربما يعيش معنا ويرافقنا أمر لا نكتشفه ولا نعيه إلا بعد فوات الوقت، أو قرب التمام، ويدخل فى ذلك هذا التدوين كله، وذلك البوح المتأخر، بعد تمام إدراكى أننى لم أكن أسعى إلا وراء طيف . وأننى اجتهدت لأقتفى وجودا غير موجود، حاولت رصد ملمح هنا أو معلمة فى تلك . ولو أتبع لى الأمر كله الذى انطلقت منه لوليت وأنصرفت عنه، ولهذا كله تفصيل، فلاكف حتى لا ألغزا لم أتم إلا بعد ارتفاع أذان الفجر، فى تلك الأيام لم تكن هناك مكبرات صوت، إنما كان هدوء مقيم، وفراغات تملأ . كان صوت المؤذن الجميل الذى يرتقى مئذنة مسجد مولانا الحسين يصلنى فى الدرب واضحا، مؤثرا وكان ذلك إيذانا باستيقاظ أبى، وخروجه لأداء الفرض فى

المسجد، عادة لم ينقطع عنها قط حتى انتقلنا إلى ضاحية مدينة نصر، واضطراره أياما عديدة إلى قضاء الليل كله بجوار ضريح مولانا.

ثمت تلك الليلة عند خروجه، واستيقظت مبكرا، أمضيت وقتا بمفردي وما شغلني وقتئذ المدخل . كيف أبدأ؟ كيف أصف حالي؟ وكيف أعبر بدقة عما يجول عندي بشأنها؟ ثم انتهيت إلى ما ذكرته . أقصد بسط حالي . ألا أخفى شيئا . حتى ما قدرته بالنسبة لمهندس الطيران هذا، رغم توقعي ويطيني إلا أنني عكمت عندما قالت إن بينهما صلة، ربما تؤدي إلى زواج، وربما لا . . لم تفكر تماما، ولم تصل إلى شيء محدد، كل منهما اتفق مع الآخر أن يترك نفسه لتطور الحال، كررت مرة أخرى حديثها عن عبقريته، وذكائه وطموحه، وتطور فكره، ولما قلت لها إنني ينبغي توقعي وكفى احتراما لما بينهما . فوجئت بها تقول :

«لا . . هذا لا يمنع . . اتفقنا على حرية كل منا . .» .

قلت ضاحكا

«ما هذا . . سارتر وسيمون يعني؟»

رفعت حاجبيها مع إغماضة عينيها الخصبتين، تلك الحركة التي أحب رؤيتها والتملى منها، إذ تعنى ابداءها الوداد، لكنني غبي، فلم أتلق الرسالة أصلا لكي أحاول فضها أو أستيعابها، لم يكن مطروحا بالنسبة لي مجرد لمسها، بل إنني لم أضاجعها بخيالي، حتى في سفرها وعودتها في إجازة بعد عامين، حدث في أغسطس أن جاءت

إلى الفندق ترتدى فستانها الأزرق المنقوش بزهور بيضاء صغيرة،  
قماش بسيط وتفصيل انسيابي، خلو تماما من التكلف، حدث أنها  
انحنت لتناول شيئا ما سقط منها، اتيح لى أن أرى نهديها من أعلى،  
لم تكن ترتدى مشدا، صغيران مثل فرخى حمام.

دائما أستعيد رؤيتى لهما أول مرة أكثر من لمسى لهما واحتوائهما  
بكفى ومص حلمتيهما الزهريتين كما جرى فى زمن تال، ولهذا  
تفصيل سأذكره فى محله إن سمح الوقت.

ما علق عندى رؤيتى الأولى تلك الخاطفة، المختلصة، غلب على  
فضولى فلأول مرة أرى بعضا من معالمها تحت ثيابها، ودهشتى أيضا  
للفرق بين الظاهر النحيل والمستتر الثرى. الخصب، الوروار، غريب  
أنى لم أعرف الإثارة عند رؤيتى لهما، لم أستعدهما بقصد ولم  
أرهما فى حلم. رغم استدعائى لنهود وأرداف وسيقان وتكوينات  
أنثوية عابرة لمجالى. قادمة من مجهول، ماضية إلى مجهول. لم تكن  
حتى سفرها موضوعا حسيا أو هدفا لرغباتى رغم هواى بملاحتها  
وهفوى لحضورها وتهيامى بها، وضناى لتقلباتها وأحيانا جفوتها  
نحوى.

أمام المطار عندما حان دورى لمصافحتها، شبت على أطراف  
أصابعها لتبادر بتقبيلى، مس شفتيها العابر هذا ما زال عندى.  
همست.

«الآن ترتاح منى . . .»



فى مواجهة عباراتها المفاجئة، الصارمة، أعتدت لو اذى بالصمت  
تحاشيا لتصعيد لا أرغبه، وسوء فهم يكلفنى عسرا. تلك المرة لزممت  
السكوت لأنها أصابت، رغم ثقل فراقها على وإدراكى لما سينتظرنى  
من أويقات مرة، إلا أننى كنت هادئا لبلوغ حالى معها حدا فاصلا .

كنت أظن أنهما تزوجا، لكننى بعد أمد طويل أطلعت على غير  
ذلك، كانت مسافرة لتلحق به فى المجر التى بعد فيها رسالته العلمية  
لنيل الدكتوراه، هناك أمضيا سنة تقريبا يعيشان تحت سقف واحد.  
متقبلة لكل ما يبديه حتى علاقاته العابرة أو المقيمة. حدث بعد بوحى  
لها أن عرفت من صاحب لى راحل عن دنيانا الآن أن من تحبه مجد  
وتتبعه كظله وتصفه بالعبرى أقام صلة بينية رقيقة، كانت تدبر ناديا  
خاصا للسينما، يعرض الأفلام التى لا يراها الجمهور ولا يُسمح  
برؤيتها إلا للنقاد والخاصة باشتراك معلوم. قال صاحبى إنه بمجرد  
ظهوره أفسد كل شىء. لديه قدرة غريبة على التأثير، فى إحدى  
جلساتنا بالفندق العتيق، قلت لها بشكل عابر .

«هل تعرفين نادى عازر؟ . . .»

تطلعت إلى . قالت إنها تعرفها ومطلعة على ما بينها وبين فوزى،  
تماما كما يلم بصلى بك .

«لكن أمرنا مختلف، ليس بيننا شىء!» .

مالت إلى الأمام محدقة تجاهى مباشرة، وعبر نظراتها أدركنى  
تعبير غامض، لم أنفذ إلى مغزاه إلا بعد فوات الوقت وانتهاء الحقبة  
ولأنها ممن يعلقنى بى حتى تلك الهنيهة فإننى أكاد أسمعها وأراها!



## توابع

حقبة ليست هيئة انقضت قبل إدراكى أن مرجعية الأمر تكمن عند أخرى سابقة ، نأت وصار وجودها متساويا مع عدمه . ظننتها مبتدأ ولم تكن إلا خبرا مؤجلا وفرعا لأصل ذوى حضوره ، وبقي أثر منه . أصل الهزة بعيد ومركزها قصى . لم أنتبه إلا عندما شرعت فى التدوين . أحيانا يكون التقييد عوناً على الكشف والاستدلال . فكلم من أمور تتصل بى سامضى قبل فهمها وإدراكها!

حتى الآن أقاسى خيبات تتبع سوء تقدير أو اندفاعه ، يغمرنى خجل يقيم ويجشم كلما استعدت ظهور هذه الصبية بالبواب ، خلعت قلبى عندما رأيتها . . . بالضبط مجد ، أخذنى التماثل حتى أننى لم أنتبه إلى ربع قرن يفصل بيننا ، دونت ذلك فى نص عنونته بشطف النار ، رغم أننى سطرته لكننى لا أستعيده ولا أقرأه ، لما يغمرنى من ندم وكسفة إذ تمثل لى رجفتها ونفرتها القصوى بعد أن لاح منى ما يشبه التلميح ، أمنت جانبى ، استكأنت إلى صديق أبيها ، من يماثله عمرا ورافقه زمنا ليس بالهين فى ظروف وعرة ، من قدرت أنه سيكون لها عوناً فى المدينة الشاسعة المدججة بالمخاطر ، فإذا به يسفر عما تصورت أنه مصدر خطر ومباغته ، حدثها أبوها عنى وقص عليها بعضاً من أخبارى ، سلمها عنوانى وسبل الوصول إلىّ حتى تستعين

على الصعاب ، فإذا بها تجد ما تخشاه فى موضع اللواذ ، لم يؤلنى أمر  
مثل تحديقها مرعوبة ، وجلة ، وعند انصرافها لفظت ما تشعر به دون  
تنميق ، بتلقائية موجعة .

«أخاف . . أخافك . .» .

منذ ابتعادها مضطربة ، وجلة ، لم يقع بصرى عليها ، لم أرها  
صدفة ، تجنبت تقصى أخبارها مع توفر الوسيلة ويسر الإمكانية ، حتى  
الآن لا تعرف أن حضورها تكرر لحضور هيمن على وشدنى إلى  
مداره . كنت مأخوذا بالشبه . ذات صباح بعد حوالى سنة من قدومها  
قرأت نعى والدها فى صفحة الوفيات بالأهرام ، طالعت اسمها بين  
كريماته الثلاث مقترنا بمكان عملها ، شركة بترول ، تمنيت ألا تكون  
صارحته بما بدر منى ، لكم لمت نفسى لتسرعى مع أننى جبلت على  
الكتمان حتى أن بعضهن ذهبن ولم يحطن خبرا بما أضمرته .

عندما بزغت فى مجال رؤيتى لم أتعرف عليها إنما على مجد فى  
الصورة التى تجلت لى فيها أول مرة ، كنت أقرب من الخمسين ، وكان  
لها من كل فصل تسعة عشر ربيعا وصيفا وخريفا . . ظهرت وأحوالى  
مغايرة لما استقر عليه حالى زمناليس بالهين . لم أعد أخفى ، بل صار  
أمرى إلى مبادرات تتجاوز المحاذير وتغفل عما هو كائن .

ظننت أنها مجد فى هيئتها الأولى ، هى . . هى .

لماذا صرت إلى هذا الحال المغاير؟

ربما لبدء إدراكى قصر الفرصة المتاحة ، ما كنت أبوح به فى قديمى

بعد كتمان طويل صرت أقدم عليه بعد لقاء أو اثنين، أو عند طق  
الشرارة، هكذا صرت إلى تلك البنية وإلى «لور» التي دونت قبسا من  
أخباري معها في كتاب التجليات، كذلك فاليريا الروسية التي أقيمت  
لها نصبا من المعنى واللفظ في رسالتي إلى صاحبي «رسالة في الصباية  
والوجد» فليطالع من يرغب الاستزادة.

لهن جميعا المنة وأصدقاء الأصائل والنهارات الجليلة والليالي وما  
وسقت، وشتى مصادر الهفوف، وما يؤشر وما يدل. ما أعيه دهشا  
أنهن كلهن لسن إلا أصدقاء للحمرء، لسن إلا مسارب تفضى إليها.  
بعد إدراكي هذا أجتهد لأقف على ما يجمعهن بها، ما يتشابهن فيه  
معها؟

بالتأكيد يتوافق بسوق فاليريا وطلتها. أما لور فمنها النظرة المنبعتة  
من عينين منحرفتين قليلا فيهما معنى آسيوى ربما أنتقل مع تاجر أو  
درويش أو رحالة عبر طريق الحرير إلى بلاد البلقان، لا يمكنني  
التعيين، فمن له الوقوف على سلساله، عرفت أخريات لكننى لم  
أدرجهن ولم أشر إليهن لاختلافهن ونأيهن عنها، ربما لهذا لم تدم  
أحوالهن ولم تثمر. لم ألزمهن رغم إقبال بعضهن وبوحهن.

ثمة عناصر للشبه تستعصى على الإدراك. المؤكد وهن صلتى بكل  
من لا يجمعها شبه بالحمرء، أو لا يتردد عندها صدى منها، لم أتعلق  
بهن ولم أمكث. حتى وإن خفق القلب، وجرى توالج الكونين.  
فكأنهن أولئك العابرات، اللواتى عرفت أجسادهن فى بيت «نينة»  
زمن جهلى ونقص معرفتى بكلية الأمر.

يتأكد لى الآن ما خفى على أزمنة ظهورهن وحلولهن عندى  
لمدى، كلهن منبثقات عنها، لا تربطن صلوات بها. هؤلاء ربما  
أفردت لهن تدوينا خاصا فأمرى مع بعضهن ليس بالهين، منهن ثريا  
التي عرفتها فى درب الطبلاوى، وكانت ذات كبرياء وصهيل  
صامت. كذلك سلسبيلة ابنة صاحب البيت المواجه فى الدرب  
الأصفر، وهبة النيل التي عرفتها بعد كد وأوشكت لكننى لم أفعل،  
وميرهام الفارسية ابنة تاجر الأبسطة التركمانية، وسندس المغربية،  
الأندلسية، الموثقة بالضىنى والفحيج الأتم، أنزلتنى منها مكانا حانيا  
وأحاطتنى بالرعاية والبدل، دللتنى ورققت لحفظاتى، لكن مضت  
أمورها معى إلى عكوسات جافية، أما ورقاء النجدية فمنها وإليها  
لهب الجمرة التي لم أعرف مثلها، القمّاطة، الحاضنة، المستعصية،  
منبعة الزوال، تلك لها تدوين يطول شرحه لا تسمح ظروف النشر  
الآن بإشهاره على الخلق، أودعته مكانا قصيا، عله يرى النور يوما،  
حتى بعد أن أفضى، عندما يعى قومى وتتراخ عنهم مغاليق كذلك  
سأشهر مادونته عن العبارات اللواتى لهن قبس منها، غير أننى بتأثير  
العجلة والوعى بضيق الوقت، وقصر المتاح مع توفى إلى المزيد،  
دفعت بأحوالى إلى ما لا أحبه وما لا أرضاه ولهذا تفصيل

## رشحة الصادة

أحيانا أضيق باستعادتي بعضا مما جرى . فما البال بحالى عند الإقدام على تسطيره غير أننى مضطر لتمام الأمر وجلاء الوضع ، لن أفصل ، إنما سأوجز مع حرصى على ألا أخل . ذلك أنى سافرت فى مهمة تتصل بعمل متعلق أمره بمؤسسة عملت بها لمدة ثلاث سنوات كنت فى بداية أمرى . لأن لى صلات بمؤسسات أجنبية جرى تعامل وتبادل معها . أوفدت مبعوثا لبدء اتصال يتوقف عليه أمور عديدة .

لم يحدث أثناء قيامى بمهام متشابهة ، وترددى مرات على مراكز مختلفة من العالم ، أننى وجدت الحال مشابهها لما كان عليه حتى لو قصر الفارق الزمنى ، ولم يتجاوز أسابيع معدودات عند وصولى أخبرونى أن السيدة التى أتعامل معها منذ سنوات طلبت إحالتها إلى التقاعد ، وجرى توديعها فى حفل فاقت خلاله المشاعر ، باعت شقتها فى المدينة واشترت منزلا فى الريف القصى حيث استقرت ، طلبت هاتفها لأبدي لها الجميل ، فى نفس الوقت أخبرنى صاحب لى أن شابة صغيرة السن ، لكنها على كفاءة رفيعة ، وتعمل بأساليب حديثة ، حلت مكانها ، وأنه اتفق معها على موعد صباح الغد ليقدمنى إليها ، لم يشغلنى أمرها إلا بالقدر الذى أفكر فيه عند لقاء من لا أعرفه

مع وجود صلة تستوجب ذلك . اقترحت على صاحبي أرمنى الأصل ، فرنسى الأم ، أن نتناول العشاء غداً ، تلك عادة . إما أن يدعوني أو أدعوه ، قال إنه مشغول غداً ، فليكن ذلك بعد غد ، اتفقنا على اللقاء فى مطعم مغربى صغير ، فى منطقة سكنية بعيدة عن المركز ، ولأننى أعرف الطبخ المغربى وتناولته مرارا فى دياره الأصلية ، أدركت جودة ما يقدمه هذا المطعم الذى عرفته عندما دعانى إليه صاحب مقيم فى مرة سابقة مضى عليها سنوات ، منذ ذلك الحين اعتدت التردد عليه كلما نزلت هذه المدينة ، أو دعوة صحبى إليه .

صباح الغد عبرت المدخل المؤدى إلى قسم العقود حيث كانت تعمل آن التى تقاعدت والتى أدى غيابها إلى مس من أسى لحقنى . ذلك أننى طالما توقعت رؤيتها وخروجها لاستقبالى ، مبدية ترحيبا ومودة ، كنت أتوق إلى دهشتها الطفولية البادية فى عينيها ، للأسف لن تنتظرنى بعد الآن ، لن ألقاها .

فوجئت باختفاء مكتبها العريض الذى تصور الغرف الفسيحة مكانه آخر أصغر وأريكة فسيحة ، ومنضدة فوقها طابعة حديثة ، صافحت زميلتها فى المكتب ، لا أعرف إلا الاسم الأول لكل منهما سألتهما عن الوظيفة الجديدة كلير .

عدت إلى بداية الممر ، لم أنتبه إلى وجود هذا الباب الرقيق عند دخولى . فوقه بطاقة معلقة تحمل اسمها وشعار المؤسسة ، يبدو أن هذه الغرفة أعدت من أجلها ، لا أذكر وجودها الخشب واضح أنه حديث ، ما زال بلونه الطبيعى ، لم يُطل بعد ، طرقات ثلاث أعقبها صوت خيل إلى أنه مألوف .



تفضل . .

دفعت الباب . بوغت . كنت فى مواجهة مجد ، حجمها ، غلاميتها ، طلعتها ، تطلعها ، حضورها ، تماما كما اعتدت جلوسها فى البهو ، أو عند ظهورها ، موقف مغاير تماما لما وصفته فى التدوين المعنون بشطف النار . ما أراه مختلفاً ، مثل كامل لسائر المحسوسات المدركة من لون بشرة ودقة سعى ، وشعر غلامى القصة ، العينان فقط مغايرتان ، عينا مجد خضراوين تتجاوبان مع ملامح وجهها . ابتسامتها مع دهشتها المستمرة ، اكتشف الآن . . الآن فقط أن دهشة آن الطفولية عند الإصغاء . ترديد لدهشة مجد ، لا أدرى هل لاحظت ما جال عندى ، ولكن ملامحها الجامدة تراوحت بين الترحيب والفضول ، فضول عادى مما يبعد عند اللقاء الأول بين طرفين يجهل كل منهما الآخر ، ولأنى جبلت على كتمان ما عندى ، أثق أن أثرا من دهشتى لم يتسرب إلى قسماتى . أبدت لطفاً متحفظاً ، وعندما استفسرت عما إذا كنت أرغب فى شرب قهوة شكرتها ، أعرف تلك الآلة الموضوعية بالخارج ، وإلى جوارها أكواب من البلاستيك ، قهوة خفيفة التركيز لا أستسيغها ، كما أتسى كنت أبالغ فى تحفظى حتى لا يتسرب شيء مما بدأ عندى .

قالت إنها تعرفنى من آن ، حدثتها عنى ، قلت إن صلتى بأن ترجع إلى زمن طويل ، لكن الغريب أننى أشعر كأننى التقيت بها من قبل ، أعرفها من وقت ، أبدت تأثراً . قالت :

« هذا لطف منك . . »

قالت إنها كانت تعمل فى مؤسسة أخرى مجال عملها دول البلقان وشرق أوروبا، لكنها لأول مرة تطرق الشرق الأوسط، خاصة الدول العربية، تعرف مصر طبعا مما درسته وقرأته عن حضارتها القديمة .

قلت إننى أتمنى رؤيتها فى القاهرة، عندئذ سوف أكون دليلها . .

كررت مرة أخرى

«هذا لطف منك . .» .

كان لنبرها نغم خاص، أنثوى، لم أجد بنظري عنها، رأيت وقفة مجد أمام المسرح القومى، وسعيها فى شوارع وسط المدينة، ودخولها بهو الفندق، وتهلل ملامحها عند عودتها الأولى بعد غياب عام فى الغرب، وإقبالها وتنوع الضوء عبر ملامحها، وفيضها عند صمتها وميلها لحظة الإصغاء، قالت فجأة:

«علمت بدعوتك لأن غدا السبت إلى العشاء» .

أومات برأسمى صامتا، أتى لها أن تعلم ما يجسول عندي، ما أستدعيه بفضيلها ولشدة حضورها، لم أسأل نفسى إذا كانت رصدت أم أنها لم تنتبه إلى سطوع الخواطر فى حدقتى وشدة تطلعى لانبثاق ما ظننت أنه انقطع عنى وزال أثره منى . كنت أواجه حضورين فى واحد، القديم طاغ والحاضر ظاهر، قلت إنه لما سيبعث السرور عندي قبولها دعوتى، قالت إن غدا عطلة، وليس لديها ارتباط فى المساء، ستجىء مع آن . قلت لها إننى لم أتفق بعد على مكان اللقاء، لكنه سوف يكون قريبا من مطعم مغربى تفضله هى اسمه سندباد،

ويعد طول تردد على مطاعم أخرى فضيلته ، كأن طعامه معدّ في بيت مغربي قديم ، زوجة صاحبه تطوانية ، أندلسية الأصل ، تطبخ بنفسها . قالت إن ذلك مشير . خرجت إلى الطريق القديم ومنى فيض ، تكمن الخفقات القديمة فنظن أنها بادت ولن تعود أبدا ، ثم يشب سبب في لحظة ما ، مكان ما فإذا بما حمد ينتفض ويسعى رغم انقطاع الصلة المحسوسة بين ما كان وما يكون ، سعى عبر الطرق مرحا . لم يعجبني أحد ، لكنني آثرت الاحتفاء بتلك البداية المبشرة ، المنبئة . قصدت مطعما قديما أفضله ، تعرفت إلى من يديرون به الخدمة ، حتى أن المشرفة عليهم ليتهلل وجهها عند رؤيتي كأننا صاحب قدامى رغم تباعد المسافات بين قدوم وآخر ، لم أطلب الزجاجة الصغيرة التي اعتدت أن أحسبها متمهلا مع الطعام المتقن ، أبدا بشمار البحر وأتبعه بما يسعى على البر . أشرت بيدي إلى الحجم الأكبر من الزجاجات التي يعبا فيها نبيذ المحل ، هكذا نصحني صاحبي مصطفى المقيم عارف بأمور الطعام وترايبه هنا ، أن أطلب النبيذ الذي يختص به المطعم والذي يقدم في دورق . أو زجاجة غير مغلقة ، لأنه يكون جيدا ومعقول السعر ، وبالطبع أملى على أصنافا من الأنواع المعروفة ، المشهورة ، والتي تحمل أسماء مناطق في أنحاء مختلفة ، ذاع أمرها واشتهر . ليس في فرنسا فقط . إنما في بلدان شتى ، المطعم قريب من الفندق ، فقط ناصيتين ، لم يحدث أنني وصلت إلى درجة الترنح أو الميل ، لكنني خشية وقوع الأمر مع توالى الخواطر وتنامي بهجة متصاعدة ظننت أخفاءها منذ وقت ليس بالهين لأسباب شتى يطول أمرها ويصعب تفصيلها . آثرت هذا المكان فأشد ما يؤرقني وقوع

مكروه لى فى ديار لا يعرفنى بها إلا نفر محدود، لا أتقن لسانها بما  
يمكننى من الشرح والمفاوضة .

عندما اقتربت من المقهى الصغير المسك بناصية طريق ضيق  
مرصوف بالحجر يؤدي إلى بيت أن رأيتهما معا، يقفان تحت المظلة،  
مجد أرق حجما، هكذا كانت تبدو فى الليل، عندما تنتظرني أمام  
مسرح أو دار سينما فى وسط المدينة . تأخرت خمس دقائق لزحمة  
الطريق، أفضل استخدام الحافلات العامة لضيقى بأنفاق المترو تحت  
الأرض، ولخشية الغريب التى تلازمنى دائما . أسرعت الخطى عندما  
رأيت المقهى مغلقا، لا يفتح بعد ظهر الأحد، لا أعرف ذلك،  
اعتادت أن الجلوس به، خاصة لتناول إفطارها، التقيتها مرتين من قبل  
هنا، يعرض لوحة لفنان واحد تتغير أسبوعيا، فى المرة الأولى تحدثت  
إلى رسام تخصص فى الفراشات، رسم أنواعها واستلهاهم ألوانها  
وخطوطها، فى اللقاء الثانى رأيت اللوحة ولم ألتق صاحبها،  
مساحات من الألوان، كلها مشتقة من زرق البحر والسماء الساجية  
فوقه، وافقت أن على إعجابها، أدركت أننى أمام أسلوب مغاير،  
مختلف . فى المرة التالية فوجئت بها تقدم إلى كتيبا صغيرا، مستطيلا  
لهذا الفنان، يحوى معلومات عنه وصورة له فى مرسمه، وأربع  
وعشرين لوحة، تأثرت لذلك، قبلتها شاكرا .

أبدت اعتذارى، قالت أن إنها لم تخبرنى بإغلاق المقهى،  
نسيت،

«تعرفين الطريق إلى سندباد . لك القيادة . .» .

قالت متسائلة .

«ألن يضايقك المطر؟» .

كنت ممسكا بجريدة عربية تطبع في لندن، رفعتها فوق رأسي، لم يكن المطر غزيراً، يمكنني المشي إلى جوارهما، تساندا فالمظلة واحدة . كنت أحياناً أسبقهما، ولحظات أتخلف عنهما . ألتفت أحياناً إلى أن، غير أن قصدي مغاير، أجتهد لكي أدرك مجد ببصري، ترتدى سترة من الجينز . وبنظرونا من نفس اللون، وحذاء أبيض . كانت تبدو وكأنها خرجت إلى مباراة رياضية أو للمشي في حديقة أكثر منها مليئة دعوة العشاء، إنها بساطة مجد عينها، لم تضع المساحيق قط، قالت لي مرة إنها لا تريد أن ترتدى وجهها مغايراً، عندما أستحضرها بالمخيلة، لحظات هبوب الحنين وتحرك الكامن، أو عند تحديقي إلى اللامكان خلال أسفاري عبر نافذة طائرة أو قطار أو عربة أو جلوسي أمام البحر، أراها ماعية في ثياب محدودة، بسيطة، ما يمثل أكثر من غيره ذلك الجاكت البني من جلد الشمواء ولي عنده وقفة وزفير، إنها بساطة مجد التي أعرف والتي تمنيت رؤيتها في أخريات اقتربت منهن لكنني لم أوغل .

بقدر حرصى على إطالة النظر إليها، بقدر اجتهادى لإخفاء اهتمامى وتصويبي، ليس تهيبا منها، لكنني خشيت افتضاح أمرى أمام أن، إذ إننى جبلت على الكتمان، خاصة فى بداية سعى لا أعرف حدوده، وإلام يؤدي، لكنني عند ذلك الظرف كنت أواجه امتداداً ومثولاً لما انقضى، ظرف مغاير لما وصفته فى تدوينى «شطف النار»،

فالبنيّة التي دخلت مكتبي ذات ظهيرة كانت صغيرة السن . تقصد صاحب والدها وزميله في المعتقل ، ولكن مجد في هذه المرة فرنسية ، غنومة ماثلة ، ربما في حدود الثلاثين ، لعلها تدرك أمرى ، كما أن في طلبها صحبتنا وحضور العشاء رغبة في القربى ، أو إبداء إشارة ، أو التلويح بنسمة مودة .

أبدى المغربى ترحيبا ، يعرف أن جيدا ، تحدثت معه عن المغرب ، عن زيارتى لتطوان مدينته ، وتعرفى على بعض أبنائها ، والجمال الأندلسى الذى تحتفظ به ذاكرتى من ملامح فتياتها .

عندما أستعيد تلك الليلة ينتفى ما عداها ، حتى بعد تطور الأمور ، جلستها ، اتكائها على المسند ، تناولها الطعام من فوق الصينية المستديرة . تتوارى آن وصاحب المطعم الذى تعامل معنا كأننا ضيوف فى بيته ، ثم قدم إلينا زوجته التى خرجت من المطبخ لتصافحنا وتسالنا رأينا فى الأكل ، ثم تخصصنا بطبق من الكسكسى رش فوقه السكر والقرفة وحببات الزبيب ، وعندما لمح غزارة المطر أصر على أن يصحبنا فى عربته حتى موقف التاكسى القريب .

كنا فى الدائرة الثالثة عشرة ، جنوب باريس ، قرب باب إيطاليا ، وفندقى فى الدائرة السابعة ، قريب من الأنفاليد وبرج إيفل ، لم أختره ولكن المؤسسة التى جئت ضيفا عليها حجزت فيه ، تسكن أن على بعد خطوات ، سيكمل صاحب المطعم برفقتها . سألت « أين بيتك . . . » .

قالت إنه قريب من الكوليج دو فرانس ، فى الحى اللاتينى .

«أينما كان سأصحبك . . لن أحميد كثيرا عن طريقى . . .» .

عندما جلسنا فوق أريكة واحدة . جد متقاربين ، حدث بنظراتي عنها ، من السهل التملئ والتزود بمن نرغب فى جمع ، لكن عند الانفراد أخشى افتضاح أمرى ، أو ظهور ما يدل على ما لم أسفر عنه بعد ، لا يمكننى أستعادة تفاصيل الحوار المتكلف من جانبي ، والذي ختمته قائلا :

« لو زرت بلدى يوما ستكونين ضيفتى » .

لم يغب عنى ، تهلل صوتها .

«الطف منك . . سارى . . .» .

صافحتها بحرارة ، عدت إلى العربية منفردا ، مسترجعا كل لحظة ، موقنا من حضور مجد ، تماما كما عرفتھا أول مرة ، الأمر يزداد وضوحه واختلافه عما وصفته فى شطف النار ، فى المرة الأولى ، رأيت مجد أقل من عمرها الذى عرفتھا فيه بسبع سنوات على الأقل ، لكننى الآن فى مواجهة من رأيتها أول مرة أمام المسرح القومى . القبطية ، الصعيدية ، الملوودة فى أبو قرقاص ، حفيدة الباشا ، من تناولت معها العشاء الليلة هى من عرفتھا منذ سبعة وعشرين عاما ، وفدت إلى وثبت حضورها فتلقيتہ ممتثلا . لم أدهش لتزايد الجذبة عندى بعد توديعها ، حتى أننى تقلبت مرارا فى الفراش لم أثبت على وضع لأكثر من دقيقة ، ورحت أحاول احتواء حركتها ، حدودها ، متسائلا ، ماذا تفعل الآن؟

هل تقعد؟ هل تتمدد؟ هل تقرأ .

هل كان بانتظارها صاحب؟ هل تعيش بمفردها؟

أستعيد متفحصاً لهجتها عندما طلبت المجيء أو بدقة أبدت رغبتها من خلال التساؤل، لهجتها تنبئ بوحدة، إذا كان لها صديق أو رفقة، فلماذا تقضى مساء السبت بمفردها؟ ربما يكون على سفر .

عند الثالثة فجراً خشيت طلوع النهار بدون نومى ، أمامى رحيل ، لا بد من التواجد فى المطار عند الثانية عشرة ، ثم الإجراءات ، والطيران لخمس ساعات ، اضطررت إلى ما أتمناه دائماً ، أو أحاول التقليل منه ، ابتلاع قرص مهدئ ، يساعد على النوم ، مع وعسى خطورة ذلك ، لشربى زجاجة نبيذ وردى مغربى ، معتق ، أحب اسمه ، «بوالأعوان» ، وأضفت إليه من عندى كلمة سيدى فأصبح «سيدى بوالأعوان» ، وهذا مرتبط عندى بحالى مع لور . إذ تعرفت عليه معها ، وأتقنت تذوقه بصحبتها ، استعدت ما أخبرنى به صديق مجرب بخطورة ابتلاع المهدئات بعد شرب الكحول ، لكننى عللت الأمر بانقضاء بضع سويعات ، وقلة نسبة الكحول فى النبيذ عنه فى المشروبات الأخرى ، الحقيقة أننى كنت مدفوعاً مضطراً إلى المخاطرة ، فلا أدري مدى تحملى لسفر لم يسبقه أى قدر من الراحة؟ استيقظت متعباً حتى أننى أمضيت وقتاً أسند دماغى إلى يدى ، مغمضاً عينى ، مطرقاً ، لكن شب داخلى أمر لم أعرفه منذ زمن ، تلك الطاقة خفية المصور التى تتدفق مع بدء النزوع إلى أنثى وآخر ملازم يقينى بشكل ما أنها حاضرة . ترانى من حيز لا أقدر على تحديده ، من مكان لا يمكننى



تعيينه ، فمرة تبدو لي معلقة في نقطة ما من الفراغ ، تتطلع إلى من مرتفع ، أو من نقطة ما تقع خلفي أو أمامي أو تحتي ، المهم . . . إنني لم أعد مفردا رغم اختفائها وانتفاء مثولها في مجال البصر ، غير أنني واقع في محيطها . لذلك يجب مراعاة كل تصرف أقدم عليه ، صارت مرجعيتي إذا قصدت ، أو تراجعت ، أو أعربت بشكل ما عن أمر مضمرة ، يبدأ عندي ذلك الحال بمجرد ردود الإشارات الأولى مع وقوع الاستجابة .

منذ أن قالت لور في لقائنا الثاني الذي لم يكتمل .  
« يبدو أنك تحب البعيد . . . »

كأني اكتشفت نفسي من خلال جزعها اليادي ، يغيب عنا ما يصدر منا ، حتى نراه من خلال آخرين يهتمون بنا ويتفحصون أمرنا ، أرى كل ما مضى من خلال قولها هذا ، وكان ممكنا أن أمضي ، أن يغلق وقتي ولا أعي ، ليس هذا فحسب ، إنما وقوفي على مصدر ما مررت به كله ، فإذا كنت حقا أميل إلى القصص ، النائي ، فليس أبعد من الحمراء ، إنها العلامة الأولى ، والشق الذي منه بدأت ، مستحيلة مثل اللحظة العابرة .

بمجرد وصولي إلى المطار بادرت بالاتصال ، استمعت إلى صوتها عبر المسجل ، إنه صوت مجد ، هدوء وعمق غير مدرك ولين أنثوي ، رغم أنني أتردد ، بل أكره الحديث عبر تلك الآلات ، إلا أنني أقدمت .

«أود أن أشكرك على قبول دعوتي قبل سفري . . .»  
في اليوم التالي دق جرس الهاتف في مكنتى ، فوجئت بالصوت ،  
بدا مغايرا لذلك الذى سمعته عبر المسجل .

«أشكرك على رسالتك الهاتفية . . .»

قلت بلا تردد .

«الحق إننى عندما رأيتك شعرت أننى أعرفك منذ زمن قديم . . .»

تأود صوتها متأثرا .

«آه . . . هذا لطف منك . . . لطف حقا . . .»

«هل تسمحين لى بأن أتحدث إليك عبر الهاتف بين الحين  
والحين؟»

«سأكون مسرورة طبعاً . . . بالتأكيد . . .»

«حتى نلتقى . . .»

فضت بها ، أجرى صوتها عندى ما لا يتدفق بتأثير مجريات أعمق  
وأفدح إلى درجة أن الدفأسرى فى أوصالى فرغبت على البعد بأشد  
ما أشعر به إذا تحقق القرب ، كتبت أول سطورى إليها على بطاقة عليها  
رسم لأنشى من الزمن الفرعونى ، تنحنى لتقطف باقة من زهور  
اللوتس ، صرت أبدأ يومى بالكتابة إليها ، وأحياناً أختتمه ، مرة رسالة  
ومرة بطاقة ، بعد يومين من اتصالى بها ، لم تكن هناك مناسبة محددة  
وحتى لا تبدو حيرتى ، أو يلوح ترددى عبر الهاتف قلت متحمساً .

«لا تنس اقتراحى بزيارتك إلى مصر . . .» .

«إننى أفكر فى ذلك . . .» .

خففت من صوتى عندما شرعت فى القول إننى كتبت إليها،  
وإننى أرجو ألا تدهش مما ستقرأ، قالت إنها تنتظر .

كلما نزلت مدينة فى قبلى أو بحرى أكتب إليها، أحيانا أشيع أكثر  
من رسالة فى اليوم الواحد، أحدثها عما قمت به، عن فكرة، عن  
كتاب طالعت، بعد أسبوع تحدثت إليها عبر الهاتف، بادرت بالسؤال  
عما إذا كانت تسلمت خطباتى .

«تسلمت ثلاثة . . .» .

كأنها تقرر أمراً عادياً . متوقعا . استفسرت عن الخطاب وليس  
البطاقات .

«تسلمت خطابا وبطاقتين . . .» .

لأول مرة أتردد، لم أعرف ماذا يمكن أن أقوله فى مواجهة هدونها  
الذى لم أتوقعه، بررته بوجودها فى المكتب .

«ما رأيك؟؟» .

«إننى فى دهشة . . .» .

«ألم أقل لك محذرا من الدهشة؟» .

«نعم . . .» .

«أرجو ألا أكون أزعجتك . . .» .

«لا . . .» .

استعدت حوارنا مرارا . إصغائي خلاله إلى ما يمكن أن ينم عنه صوتها ، عبر الأحاديث الهاتفية يتحول الإنسان إلى صوت ، وليس مثل الصوت كاشف للحالة الداخلية ، منذ اللفظة الأولى أعرف على الفور إذا ما كان محدثي مقبلا أم متحفظا ، مستريحا أم متعبا ، ذكرت ذلك من قبل ، وأستعيده مرات .

ثمة ما أقلقني . . حيادية نطقها . تغير لهجتها أو إيقاعها عن الحوارات السابقة ، ثمة شيء ، هل أخطأت؟

في مثل هذه الحالة أحاول التأكد ، ففي هواجم الخواطر والظنون ، أندفع أكثر مما أنا عليه . طلبت الاشتراك في الخطوط الدولية حتى يمكنني الاتصال في أى وقت خلال تواجدها بالمكتب ، عندما أصغى إلى صوتها المسجل أكتفى بالاستماع إليه . التدقيق في خصوصيته ، عندما كانت تنطق اسمى مجردا أدرك أنها في حال يسمح بالحوار ، ولأننى كنت أريد الإلمام بكل ما يمكنني معرفته عنها ، عرفت مكان مولدها ، فى مدينة صغيرة بجبال الألب الفرنسية ، تزور أسرتها مرة أو مرتين كل سنة ، لها شقيقة أصغر منها ، إنها فى الثلاثين من عمرها ، قلت صادقا إنها تبدو أصغر ، قالت إن كل من يعرف عمرها يقول ذلك ، تسكن فى شقة من ، حجرة وصالة ، لم أسألها إذا كانت تعيش بمفردها أم بصحبة صديق؟ أثرت بقائى جاها حتى لا أصغى إلى رد يقطع أى أمل مرجو . عرفت أنها تجيء إلى المكتب فى التاسعة تماما ،

تنتقل بحافلة عامة، تستغرق المسافة حوالي عشر دقائق، تناول إفطارها بسرعة قبل خروجها، قهوة باللبن مع ملعقة عسل نحل لا غير، وجبتها الأساسية في المساء، عند الظهر تناول الغداء في مطعم صغير تفضله. يديره عجوز يوناني وزوجته، تفضل المسقعة، والكالامار المقلّى، إلا إذا دعت أحد المتعاملين مع المؤسسة إلى الغداء، عندئذ تختار أحد مطاعم سبعة يتوزعون حول المقر، تتعامل معهم إدارة العلاقات العامة.

لم تبد صدأ، لكنها لم تسفر عن ود، نجيب بقدر ما أسألها، لا تستطرد ولا تدع فرصة للتداعى، عندما اتصلت بها صباح جمعة قالت بهدوء إنها تعتذر، ليست بمفردها، سألتها عن الوقت الذى يمكننى فيه محادثتها، قالت خلال ساعة، بعد ستين دقيقة بالضبط عدت إلى الاتصال. كنت أعرف أن التسجيل يبدأ بعد أربع رنات عند الثالثة وضعت السماعة لم أشأ ترك أى أثر يدل على اتصالى. ستعرف من المحادثة الناقصة أننى حاولت، رحت وجئت، ولأول مرة أنطق بصوت مسموع متسائلا عما إذا كنت تسرعت، أخطأت الوجهة، ماذا أفعل وثمة معاملات أمثل فيها مؤسسة ولا بد من إنجازها، كيف نسيت صاحبى المجرى عندما قال يومها «الخباز الشاطر لا يأكل من المخبز. الذى يعمل فيه، والعاشق الماهر لا يمد البصر إلى من تعمل معه، أو تسكن إلى جواره...».

واضح أنها تتهرب، تتجاهلا..

لكنها قالت إنها ليست بمفردها، وهذا يعنى حرصها على

خصوصية المكالمة ، أم أنها تتخرج لانشغالها ، لأننى غير مستوثق ،  
عادنى ذلك التردد ، الحيرة ، الشك ، انتفاء القدرة على الاستقرار أو  
التوجه صوب وجهة واحدة . عندما التقيت مجد وصار أمرى إلى  
حيرة ، مرة تقبل ومرة تدبر ، كنت محاطا بصحبنى ، وكت أجا إليهم ،  
أقص عليهم المشورة ، أخفف عن أثقالى ، لكننى الآن وحيد ، مفرد ،  
مع مرور الزمن صار الكتمان من طبعى ، وأحيانا أنتبه إلى توحدى  
وانفرادى رغم الجمع الذى يحيط بى ، لكن لكل منهم قدر ، وبعضهم  
أحرص على كتمان ما عندى فى مواجهتهم ، وأضبط لفظى وتعبيرات  
وجهى ، أما أصحاب الزمن القديم فتفرقوا ، منهم من قضى ، ومنهم  
من اغترب ، ومن بقى أخذته المشاغل مع زيادة حرصى وبعدى . يوما  
اتصلت بمجد ، كانت تسكن قرب الهرم فى قصر من حجر ، الحديقة  
المؤدية إليه فسيحة ، كثيفة لا تسفر عن البناء إلا عند الاقتراب منه ،  
ردت أمها ، طلبت انتظارى لحظة حتى تحول المكالمة إليها ، لكنها  
عادت لتقول إنها لا تجيب ، ولا تدرى إذا كانت مستيقظة أم نائمة ؟  
اعتبرت هذا صداً بلغ معه انزعاجى إلى حد أننى مشيت أحدث نفسى  
فى الطريق . استعدت تلك الحيرة ، وتعاضم البلبلة ، ويقدر ضيقى  
بعدم مجاوبتها بقدر دهشتى الباعثة على راحة ما لأن القدرة على  
القلق والغيرة وخشية صد المحبوب مازالت قادرة ، باقية !

ما تمنيته أن يرن جرس الهاتف فأجد صوتها ، تمد أصبعها ، تضغط  
الأزرار ، رقمى ، أن تطلبنى ، أن أسمعها مرة حتى لو سلبا . كأن  
تعتذر عن استلامها خطاباتى أو تطلب منى الكف عن الاتصال بها .  
غير أنها لم تفعل ، فى يوم جمعة جاوبتنى ، بدا مزاجها مستريحاً ،

رحبت بي حتى أنها استفسرت منى عن موعد وصولي ، قلت إن الأمر مرتبط بإنهاء إجراءات التعاقد فى الشؤون القانونية ، ثم ذكرتها بدعوتى إلى العشاء طالبا منها اختيار المكان المناسب الذى تفضله ، خلال ذروة المحادثة ، طلبت منها الأذن لأن جرس الباب يرن . وسألتها إذا كان ممكنا أن تتصل بى بعد خمس دقائق ، فقط خمس دقائق ، خمس دقائق ، سبع ، ثماني ، عشرة . الهاتف صامت ، بالطبع لم يكن ثمة رنين ولم يكن هناك طارق . إنما أردتها أن تطلبنى ، أن تبادر حتى بناء على رجائى ، لكنها لم تفعل ، بعد ساعتين عدت أدير رقمها من جديد ، لكن الصوت المسجل أجابنى ، فى هذه المرة تلوت رسالة ختمتها بـرجاء محادثتى عندما يمكنها ذلك ، لكن لم يحدث ذلك حتى تكليفى بالسفر إلى باريس لإنهاء الإجراءات وتفويض بالتوقيع ، لحظة تبليغى خفق قلبى دفقة قديمة آخر مرة تردد صداها فى صدرى عند اكتمال رؤيتى لفاليريا الروسية فى طشقند الأوزبكية ، وهذا ما فصلته فى تدوين آخر .

حرت فيما يجب أن أهديه إليها ، ولأننى أعرف تفضيل ما يتصل بمصر الفرعونية هناك ، قصدت صاحباً من زملاء الدراسة الابتدائية ، تفرغ لصياغة الذهب ، غير أنه ابتلى بإدمان حبوب مهدئة تقعه طوال اليوم فى دكانه محدود المساحة الذى يطل منه على السوق وفى ركن جد صغير منه يقوم بالعمل ، لا يفارق غيبوبته الهادئة ، المستقرة إلا عندما يطلب أحد زبائنه المقربين عملاً محددًا ، حلق ، قلادة ، سوار . ولأن الصلة بيننا قديمة ، بدأت عندما كان صبياً مازال فى ورشة زوج شقيقته ، ولأن أحاديثنا كلها عابرة ، جرت دائماً ونحن وقوف ، عندما

أصبح بعض الزوار الأجانب، أو المعارف لشراء قطع صغيرة مشغولة بأسعار ليس مبالغاً فيها، أو عند لواذى بالحى القديم، أتقصى ظلال القعدات المولية، وليالى السهر، وقدم مجد المباحث أو المتوقع، طلته الطفولية، ودهشتها الفياضة وصفائها الحميم. بسرعة كنا نتبادل الحديث عن أدق الشئون، تلميحاً. هو يعرف وأنا أعرف. أطلعنى على علاقته بصبية من الجمالية وصفها بأنها مهرة، رأى منها ما لم يره من غيرها، خرج عن كل طور حتى أنها حملت منه مرتين، لكنها أجهضت خشية من أهلها، ولأن شرط الصلة: لازواج لسبب بسيط أنها متزوجة بالفعل من أمين شرطة لا يعطيها حقها، ولأن صاحبى مصدود عن امرأته التى أنجب منها ثلاثة، حتى أصبحت كأخوين، قال متأسياً مرة

«مشكلة عندما تصبح الزوجة أما أو مثل الشقيقة . . .» .

كنت ألمح إلى علاقاتى وصلاتى، وأحياناً أصحبهن إليه . يتطلع فيفهم ويلزم الصمت، عندما أخبرته أن الأمر فى هذه المرة مختلف، يعرفها ولا يعرفها، ذلك أنه رأى كافة من اتصلت بهن . ومنهن مجد بالطبع التى جلست تراقبه أثناء عمله، لكنه عجز عن تذكرها قال ضاحكاً:

«سأتذكر من أو من . . .» .

«من يسمعك يتصور أننى دون جوان . . .» .

«يا سيدى . . . ربنا يحبب فيك خلقه . . .» .



تساءل .

«صفها لى . . .» .

من خلال كلماتي المصحوبة بإشارات شتى يحدد الهدية المناسبة ، رحلت أصف له مجد ، الأولى البعيدة والتي أتجنب اللقاء بها منذ أمد حفاظا على ملامح عرفتتها يوما بعد أن أخبرنى صديق مشترك أنها أصبحت طاعنة فى السن ، تبدو وكأنها جدة عجوز ، مجد الثانية ليست إلا صدى من أصداؤها ، صورة لها ، وكما ذكرت فلئنى وقفت خلال هذا التدوين على انتمائهما كلاهما إلى مصدرى الأقصى الحمراء التى أخشى الاستفسار عنها من أقاربى ، أو عند نزولى البلدة ، أوتر الإبقاء عليها فى حيز يقع بين الزمان والمكان ، بين المؤكد ، واللايقين !

«الخرطوش مناسب لها . . هل يمكنك أن تكتب لى اسمها بالعربية» .

كتبت بعناية «مجد» ، يحفظ الحروف الهيلوغريفية المقدسة ، منها سيجد المقابل ، طلبت علبة من القطيفة الحمراء الياقوتية ، لوني المفضل ، أضعها فى جيبى ، لحظة دخولى ، بعد المصافحة أخرجها ، أفتحها ، اشرح لها ماذا يعنى هذا الاسم ، وإذا سمح الحال أفك القفل وأحيط عنقها بالسلسلة المتقنة .

«أدخل» .

دفعت الباب على مهل ، برفق ، حتى لا يكون ظهورها مرة واحدة

فيذهلنى ، أو يأخذنى فيتلجلج أمرى ، تسند سماعة الهاتفف إلى أذنها  
بكتفها ، تتطلع إلى ، ثم تحيد فكأنتى غير مائل ، لم تدعنى للجلوس ،  
لم تشر بيدها إلى المقعد ، حرت فلم أعرف إن كان مناسباً جلوسى أم  
البقاء واقفاً ، لم تبد أى انفعال ، لم أشأ الجلوس حتى لا أبدو مبالغا  
فى أى شىء؟ لا أدرى . لكن كلما مضت على ثانية تضاءل أمرى  
وازداد انحناى وقصر قامتى ، وهذا ما لم أعرف له مثيلاً من قبل .  
فرغمت . تطلعت بلامح مجمدة إلى .

«نعم . . .»

افتعلت الابتسام .

«هل يمكن الجلوس؟»

«طبعاً . . .»

قلت إننى وصلت فى ساعة متأخرة ، لكننى حرصت على  
الاتصال صباح اليوم حتى أراها أول أيامى هنا ، طبعاً . . قصدت  
أميرين ، التذكير بأننى قادم من بعيد ، أت من بلد آخر ، خمس ساعات  
من الطيران ومثلها فى الإياب ، كأننى أذكر المقيم بحق الغريب ،  
أستعيد اتفاقنا على الموعد ، الثالثة بعد الظهر ، تراجعت بالمقعد  
المتحرك الذى يتبع حركتها . قالت بضيق ، باشمزاز سرعان ما تحول  
إلى نفور بل إلى احتقار سافر .

«ما هذا؟»

تطلعت إليها وجلاً ، حائراً ، لا أجد منفذاً ألوذ به أو أبدى عنده

الحجة ، تضاءلت فى مثولى حتى غاصت دماغى بين كفى ، حشرتنى فى موقف المذنب منذ اللحظة الأولى ، بدءا من نطقها ، هذا التعالى والاستنكار ، من ناحيتى لزمتم الحرص اتقاء لقضيحة تلحق بى ، كيف أبرر ، كيف أوصل العمل معها ، كيف يمكتنى الشرح ؟ فسوتها لم أعرف مثيلا لها من قبل .

قلت معان متناثرة عن نفاذ حضورها إلى ، عن أثرها المتنامى ، عن صلوات البعد ، غير أنها قاطعتنى مستنكرة ، كيف يحدث هذا كله من خلال لقاء عابر لم تتبادل فيه إلا القليل من الكلمات ؟ كدت أحدثها عن النظرة الأولى ، والإلمام بالمحبوب عبر لمحة ، نظرة تكفى ، بل كدت أستدعى سيرة مجد وسعاد ونادية والقضية النائية ، غير أن ملامحها القاسية ، المزدرية جعلتنى أكف وأحض النفس على الاحتمال .



## رشحة الحميرا

لم يقع عندي أى حد من التداعى أو الربط عندما أصغيت إليها.  
«حميرا تتكلم . . .»

فارسية تتحدث العربية، سمعى لا يخطىء، لكننى لا أعرف شيئا عنها، المرة الأولى التى أصغى إليها، لابد أنها من اللواتى عبرن بى أو مررت بهن أثناء مشولى فى معرض طهران. وزعت العديد من بطاقتى على من حاورنى أو قصدنى بالسؤال. قالت إنها فى القاهرة لحضور مؤتمر لمدة أيام ثلاثة، ثم تبقى أسبوعا للزيارة والفرجة. سألتها عن مكان إقامتها، ذكرت اسم فندق فى الزمالك، متوسط، يقصده الأجانب الذين يتجنبون الفنادق الكبرى، أوروبى المدخل والأثاث، قصدته من قبل لزيارة سيدة من البحرين جاءت للعلاج النفسى، قالت إنها تصحب ابنها وصديقتها.

ربما أتذكرها عندما تلج مجال بصرى، لكنها عندما طرقت الباب فى الحادية عشرة من اليوم المتفق عليه، تطلعت موقنا أننى لم أرها قط، لا أعرف ملامحها، قساماتها لا تحيل على لحظة معينة. أبدت الترحيب وكأننى أعرفها جيدا حتى لا أسبب لها حرجا أمام ابنها وصاحبته.

## «نشأت ابني . . شيرين صاحبتى . .»

يستمر تطلعها إلىّ، أستفسر عما يفضلون شربه، خلال طقوس الاستقبال أتلقى وأتمعن، ليست ممتلئة، ليست نحيلة، هيفاء القامة، سارية إلى أعلى وجهها ملتقى حضارات، ومحط قوافل ساعية من أزمنة إلى أخرى، دقيقة التمكين، منطوية على كثير، لحيفة تبدو غريبة وأخرى شرقية وثالثة لا يمكن تحديد الجهة التي نبعت منها تلك الطلة، بدت لى جامعة . . يرتدى ابنها سروالا أطول مما يوصف بأنه قصير، وأقصر مما يمكن القول إنه طويل، ينبىء صوته بمفارقة الصبى إلى المراهقة، استعدت مرورى بتلك الحقة، بدء خشونة صوتى مع بلوغى اللذة الغامضة، المستجدة علىّ. المتفجرة، السلسالة منى، أستيقظ على بلبل مغاير، أكثر لزوجة، رائحته لم أعرف مثيلا لها من قبل، مصدره عين الفتحة المدرة لبولى، حتى أتقنت استجلاب مائى بذاتى . تعمدى الوقوف فى الحارة والنداء، شاهرا على الملأ ما لحق بصوتى من تغير أدركه، غير أن هذا الفتى بدا خجولا، حريصا على التوارى، قليل اللفظ مثل أمه، يحيد بنظره بعيدا عند حديثى وتوجهى إليه .

بعد أول لقاء دارت حيرتى حول اللحظة التى التقيت خلالها بالخميرا، كيف لا أتذكرها؟ ثمة أمر يقربها منى ويدفعنى صوبها لكننى ملزم بالتأنى، بعد أنتهاء الأيام الثلاثة للمؤتمر بدأت سياحتها، لا تعرف أى آخر فى مصر التى تنزلها لأول مرة، بشكل ما أدركتنى مسئولية غامضة، بدأ عندى عنصر خفى أجهله فى ذلك

الوقت كنت مشغولا بعمل كثيف يستغرق وقتى صباحا ومساء .  
اقترحت عليهم أماكن معروفة وأخرى غير مطروقة، وعدتهم  
بالصحة لكننى لم أعرف متى أو كيف؟

فى اليوم التالى اتصلت صباحا، أصغيت إلى صوت حميرا الآتى  
من حقبة مغايرة، التطلع، الشاكى، المتسائل، الناضح بالرغبة فى  
اللواد، ليس غريبا عنى، لكنى متى وكيف؟ لا أعرف!

استفسرت عن المكان الذى سيقصدونه اليوم، كنت أرغب فى  
إبداء الاهتمام بدون التزام محدد إلى جانب انعدام رغبتى فى  
الشروع، فى اليوم التالى عندما أخبرتنى بنيتهم فى السفر إلى الأقصر  
لمدة ثلاثة أيام، عندئذ بدأت أصف الفندق الذى اعتدت الإقامة فيه .  
يقع على بعد أمتار من وادى الملكات، ودير المدينة ومعبد هابو، يقوم  
فوق الأرض التى امتد عليها معبد امنحتب الثالث فى الزمن السحيق،  
لم يتبق منه إلا التمثالين الشهيرين، يمكن رؤيتهما من إحدى غرفه  
وشرفته العلوية، بيت تقليدى يماثل البيت الذى وكّدت فيه . حفظه  
صاحبه وأعدده للإقامة المريحة، ولهذا الفندق حديث يطول فى  
تدوينى عن الأمكنة، وصفت لهم كيف يقطعون المراحل إليه .  
اتصلت بصاحبه لأوصيه بهم خيرا فأكد لى أنهم فى عينيه .

عندما أيقنت بسفرهم أدركتنى راحة . لن أشغل بمتابعة أخبارهم  
اليومية، أو الرد على اتصال الحميرا اليومى ليلا، تخبرنى بما قامت به  
وما تنويه غدا . مرة واحدة اتصلت لأطمئن . قالت إن الإقامة جيدة  
والطعام فريد، الجو حار جدا . أغسطس أشد شهور السنة قيظا لكن

ما يروونه من روائع يخفف ويقوى الاحتمال . كررت شكرى مرتين ، بعد انتهاء اتصالي أدركنى توق غامض لكننى لم أقدر على تصنيفه أو إيجاد مرتكز له . وإن أيقنت بحوم شىء عندى حولها ، ورجبتى الطواف بها .

فور عودتهم من الأقصر قصدوا مكتبى . قدمت لى الحميرا رغيفين من العيش الشمسى ، يعرف صاحب الفندق حبى له وتذوقى لارتباطه بسنينى الأولى فى الصعيد ، أبديت سرورا . قطعت كسرة مضغتها على الفور . ابتسامة خفيفة دلت على دهشة ابنها .

صباح اليوم التالى التقينا أمام مسجد ومدرسة السلطان حسن . خلال السنوات الثلاث الأخرى أبدأ استعادتى لأيامى القاهرية منه ، أفضى فيه وقتنا ، أما فى الصباح الباكر أو بعد العصر ، وقت الأصيل ، أعرف الحنايا وتفاصيل الزخارف وحركة الضوء والظلال وأصداء الطيور التى تأوى إلى الجدران الشاهقة ، طيور الصيف غير طيور الشتاء ، لم يعد أحد ينتبه إلى وفادتها فى خضم زحام المدينة وتضخمها .

أقول لمن أصحبه : ليس مهما رؤية الشىء ، المهم . . كيف نراه ، هذا ما يتعلق أيضا بذلك المبنى الشاهق الذى ألج عالمه الخاص مع الخطوة الأولى عبر مدخله الأشم ، عند توقفى فى بهو المدخل ثم سلوكى الوصلة ما بين الخارج والداخل حيث يتم التهيؤ للوصول إلى الصحن المكشوف ، إذ يتصل الجماد بالروح ، الأرض بالكون البادى ، وصولا إلى محراب الإيوان الرئيسى ، ثم العتبة ، المركز والضريح



تدرج لأبد منه عبر المراحل للوصول إلى الخطوة التي لا تليها أخرى  
وتؤدي أيضا إلى كل شيء . قدس الأقداس في المعبد المصري القديم ،  
المذبح في الكنيسة ، المحراب في المسجد ، وقبل هذا كله الباب  
الوهمي في منزل الأبدية ، المقبرة ، عبرنا إلى مسجد الرفاعي ، قلت  
أننى سأشهدهم مفاجأة ، بعد لفت النظر إلى طراز العمارة المغاير ،  
عثماني المرجعية ، وإلى جمال الألوان ، خاصة لقاء اللون الطبيعي  
للحجر بالأزرق النيلي والأحمر الوقور ، دخلت إلى مرقد الملوك  
الباردة ، التي لا يتوقف أمامها أحد ، عبرت مقبرة الملك فاروق ،  
والأخرى التي يرقد فيها والده ، دخلت مباشرة إلى مكنن المفاجأة ،  
في هذه الزاوية يرتفع العلم الشاهنشاهي فوق مقبرة منخفضة من  
رخام أخضر تداخله عروق حمراء ، دائما أتساءل ، هل توقع ملك  
الملوك في أوج عظمته وقوته أنه سيرقد إلى الأبد في قطعة من الأرض  
لم يطأها قط ، ولم تخطر له على بال ؟

في لحظة معينة التقى بصري بعيني الحميرا ، لا أدري بالضبط أي  
تشخيص يمكنني إحالة نظرتها إليه ، إنها قليلة اللفظ ، صامتة بطبعها .  
في هذه اللحظة بدت أشد إيغالا في سكونها .

هل أخطأت ؟

هل كان السؤال واجبا عما إذا كان لديها الرغبة في زيارة قبر الشاه  
أم لا ؟ ربما أسبب لها حرجا ، لم أعرف مشاعرها بدقة لصمتها  
وحيادية ملامحها ، وإن خيل إلي أن ثمة تأثرا ما . إنها من الجيل الذي  
تكون في ظلال الثورة ، في مناخها ، لا أعرف شيئا عن موقفها ، عن

انتمائها، الحقيقة أنني لا أعرف شيئا عنها، لا أذكر اللحظة التي التقينا فيها، ولا تلك التي مددت فيها يدي بالبطاقة التي تحمل اسمي وعنواني وأرقام هواتفي .

داخلى ذلك الإحساس بالذنب، وعندما بدأنا المشى فى شارع سوق السلاح المؤدى إلى باب زويلة، خط سيرى المعتاد، عندما أقصد المجاملة أضرب موعدا لا يتناقض مع عاداتى، يتفق مع ما حددته لنفسى من برنامج أسبوعى، هكذا مضيت نازلا فى الطريق القديم، أشير إلى السبيل الذى بنته رقية دودو، إلى بلاطاته الخزفية تركية الأصل فارسية اللون، إلى كيون الألوان فى صحن مسجد سيدى أحمد أبو حريبة، عند وقوفى فى مواجهة الزخارف النباتية المحيطة بالمحراب، عند ارتفاع أصابعى إلى الجدار شارحا وجهة نظرى، التقى بصرى بنظرتها

ياه . . كيف لم أنتبه؟

طلتها تلك المصحوبة بانفراجة يسيرة بين شفيتها نبهت سائر كوامنى، هل تغير نبر صوتى عند انتباهى إلى بثها؟ لا أدرى . .

فى العاشرة ليلا اتصلت بى ردا على مهاتفتى لها سبع مرات، طلبت منها أن تزورنى غدا بمفردها . كنت متعجبا من أمرى، كيف لم أنتبه؟ كيف لم أدرك منذ اللحظة الأولى، ليس هذا بالجديد عندى، يمكننى تقبل ذلك مع رحابة الوقت وإتاحة الفرصة . لكن الزمن الآن محدود، ضاغط، يدفعنى ذلك إلى التصريح فى غير الأوان، إلى الحرج والمزلة . كما حدث مع تلك البنية التى صدتنى،

بل أهانتني وقست عليّ، لم تحاول حتى أن تستطلع أو تفهم، لم يكن في وسعي إلا الکتتمان خشية الفضيحة في مجال يمس عمليّ، نخجل يدركني كلما استعدت اندفاعتي إلى جهة غير متأهبة. مضى بي وقت غير قصير أحاول إزاحتها بعيدا عني، لم يكن ما جرى هينا عليّ.

قبل إقلاعها بساعات جاءت، مفردة، قعدت في مواجهتي أو جلست أمامها، تتبادل النظر، متطلعة من المشارق والمغرب معاً. أفصحت عن صوت لا يمكن تصنيفه علي أنه أنة أو آهة، قابلكه، جاوبته بالتفهم والإصغاء، صرت إليها وصارت إلى بالتطلع، حال جديد عليّ، لا يمكنني مقارنته بلحظة سابقة، هكذا خيل أو شبه لي في آنية اجتماعنا. لكن . . كم من أمور أدرك معناها بعد فواتها، اتضح لي ما خفي عليّ وقت مثلها.

عندما تأهبت فارقيت المقعد، وقفنا وسط الحجر، قوس مشدود وسهم متأهب، لكن لا دفع ولا إطلاق، أظهرت الامتثال، أولجت صمتها في صمتي، ما إن وصلنا إلى المصعد حتى قالت بهدوء .

«أنت مشغول جدا . . .»

قلت كالأبله .

«لكننا سنلتقي . . .»

متى وأين؟ كيف؟

لأول مرة أنفذ إلى الحمراء مباشرة بدون وسيط، أهي صدفة أن  
اسمها الحميراء، لا . . إنها هي، تلازمني منذ بداية سعيي . مضاف  
إليها ومورق منها سائر تحولاتها وما بدت عليه . كيف لم يتم إدراكي  
إلا بعد ذهابها، بقدر اقترابها كان ابتعادها، بذهابها القسري لم ترحل  
إنما أفتقد الإمكانية، ويتضاءل الاحتمال . ذلك حسبي !

(رشحات عابرة)

## ثانيا

عبثا أحاول

أحرق فيما لا أقدر على تعيينه، في المتبقى عندي، لا أعرف  
مستقره أو مقامه، أو الشروط التي تدفع بعض التفاصيل إلى التوارى  
أو الظهور، عبثا أجتهد لاستحضار ملامح يفصلني عنها أكثر من  
أربعين عاما. لا يمكنني تحديد اليوم أو الشهر، أما السنة فأخمنها.

يرتبط بها لون وسط بين الأزرق الفاتح والأخضر، رغم رؤيتي لها  
مرات، لكنني لا أظالعتها إلا مرتدية هذا الثوب المكون من قطعتين.  
منه يبرز عنقها مكتملا مؤديا إلى وجهها المتناسق، إلى شعرها  
القصير، أطوف ثم أمثل أمام مركز عينيها السوداءوين، العميقتين،  
الأموميتين، الحائيتين، المتطلعتين، الحاضيتين، الطيبتين، تنظر إلى من  
أسفل، إذن. كانت أقصر مني بقدر. ليس إلى حد كبير، فلم تكن  
قصيرة، إنما هي وسط بالتأكيد، أفوقها طولا.

متى رأيتها أول مرة؟

لا يمكنني الجواب، لكنها بالتأكيد كانت بصحبة محمد عودة، أحد  
شيوخ الأوائل الذين اهتمت بهم وتمثلت بهم وتركوا عندي معنى

وفتحوا لى أفاقا شتى جاءت بصحبته إلى مقهى الفيشاوى المكتمل وقتئذ، علمت أنها زوجة المستشار الثقافى البلغارى، هى بلغارية إذن، تلك بداية اهتمامى بهذا البلد الذى زرتة ثلاث مرات فيما بعد ربما بتأثير تلك اللحظات التى أمضيتها معها .

مثل كل من عرفناهم، إن عرضا أو عبر إقامة وقربى، طالت أو قصرت، لا أذكر تفاصيل محاوراتنا، إنما جوهر بعضها، عندما تطل على منى استدعى رغبته فى زيارة بيت أسرتى وترددى أول الأمر .

كنا نسكن شقة صغيرة، ضيقة، من حجرتين وصالة، لم يكن لدينا غرفة لاستقبال الضيوف، فقط سرير بجواره مقعد ومنضدة خشبية أسند إليها كئبى وأوراقى .

ظهيرة ما جاءت، عند دخولها عانقت أمى، تلك لحظة مواجهة كل منهما للأخرى، ترحيب أمى وتعبير ما فى عينيها، اعتذار خفى عن ظروف صعبة، ودهشة، ربما لأن ابنها الأكبر يجىء بصحبة سيدة شابة، جميلة وأجنبية، تتحدث العربية بصعوبة، لكنها والله «طيبة» .

عندما ترى أمى وجهها جميلا عابرا، أو عرض لها، تردد جملة سمعتها أكثر من مرة «والله فى الدنيا جمالات . . .» .

قالتها ذلك اليوم بعد عودتى، قالت إنها تبدو طيبة، وأنها تحب من يبدو طبيعيا ولا يتكلف، وأنها حاشتها عن غسل أكواب الليمون بالعافية، نساء الحارة كلهن تطلعن من النوافذ والشرفات عند انصرافنا .

«صحيح . . .»

لم تأت بعد ذلك ، لماذا؟  
أيضا ، لا يمكننى التحديد .

ربما لاعتقالي بعد فترة قصيرة ، وعند خروجى استفسرت من العم  
عودة عنها فلم أجدها ، قال إن مدة زوجها فى مصر انتهت وأنهما عادا  
إلى صوفيا ، سينتظران بعض الوقت قبل رحيلهما إلى بلد آخر . منذ ذلك  
الحين بدأت أستعيدها من حين إلى آخر ، لحظات عديدة ، تلاشى معظمها  
عدا اثنتين ، الأولى تلك التى ذكرتها . والثانية متصلة بالرقص .

فى بيتها بالزمالك ، أرى كل التفاصيل ، لون الستائر ، درجة  
الضوء ، البيانو الأسود المانى الصنع ، الثريا ذات الأفرع المتعددة على  
هيئة أغصان لكنها معدنية ، ينتهى كل منها بمصباح مستطيل يستوحى  
ثمرة الكمثرى .

مناسبة ما ، ربما عيد ميلادها ، ربما احتفال بذكرى ما تتصل بتاريخ  
بلادها . ربما دعوة لا صلة لها بهذا أو ذاك ، المهم أنها تبدو لى باسمه ،  
نشطة ، تظهر اهتماما بضيوفها . ولقلة خبرتى لم أتأكد من ملاحظة عم  
محمد عودة فيما بعد ، إنها خصتنى بقدر ، ربما لملاحظتها ارتباكى ،  
حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف كيف أتعامل مع أنثى ، خاصة إذا  
خلوت بها ، ولذلك تعاضم حرجى عندما دعتنى إلى الرقص .

بعد أن عزفت مقطوعة قالت إنها لبرامز . أدارت أسطوانة ،  
وتقدمة مباشرة أمسكت يدى فأتصلت كينونتى بوجودها ، لمسة  
ما تزال سارية عندى ، مرسله بلا توقف ، تبعثها منقادا ، مأمورا ،  
لكننى هباب فلم يسبق لى المراقصة قط .

تطلع عم عودة صوبى حانيا، مشجعا منبها أيضا إلى أن ترددى لا يلىق، لكننى قلت لها .

«لا أعرف الرقص . . .» .

قالت مشجعة :

«هذا لطيف . . لطيف جدا . . .» .

ثم قالت :

« حاول معى . . .» .

وضعت يدى حول خصرها فغمرتنى نداوته وهشاشته، لم أتصور حتى هذه اللحیظة أن الوجود المادى للمخلوق يمكن أن یرق حتى هذه الدرجة، من تلك اللمسة، من هذا الخصر الذى تلاشى الآن انبعثت درجة القیاس عندى فیما تلى ذلك، فهذا أغلظ وذاك أرق، أقوى ماتبقى منها ومثل عندى، لاحظت ارتباكى، قالت :

«ستكون راقصا جيدا . . .» .

فى لحظة ما، بمقهى یطل على البحر السكندرى بعد أعوام أيضا لأدرى مقدارها، قطع عم عودة الصمت، قال :

« هل تذكر تانيا البلغارىة؟ » .

قلت على الفور :

«طبعا . . .» .

وعندما لاحظت سرحة عینیة، تساءلت :

«مالها؟» .



## جانكا

جانكا بتكوفافا . .

لا أدري موضع سعيها الآن بعد مضي أربعة عشر عاماً على لقائنا الثالث والأخير ، هل ما تزال تشغل حيزاً يمكن تعيينه في عالمنا هذا أم اندمجت بالكون الفسيح ، اللانهائي ، أي . . مضت إلى هناك !

لا أعرف ، لا أحتفظ بأي إشارة تدل عليها ، الدفتر الذي يحوى عنوانها فقدته منذ أمد ، بل إن فترات طويلة مضت لم يرد حتى اسمها على ، ولا أي عنصر يمت إلى ملامحها النائية ، غير أنني إذ أمعن وأدقق فيما لا يمثل أمامي أكاد أقف على ما لم أتبينه من تانيا ، الملامح البادية ، ما يربط كل منهما بالأخرى وثيق ، فلا استدعى تانيا إلا وتتبعها جانكا ، كذلك العكس ، ليس لأن كلا منهما تنتمي إلى نفس البلدة ، بل إلى العاصمة صوفيا ، ولكن لأن تانيا هي المؤدية إلى جانكا ، ولأنني ألمت بما آلت إليه تانيا من جانكا ، كلاهما ملازمة للأخرى عندي ، غير أن ما قربني ، ودفع بي إلى وصل أمرى معها كان رائحتها ، لا أعنى العطر الذي تستخدمه ، إنما نسيم حضورها ، لكل إنسان مفرد عبير خاص به ، يصعب تكراره ، تماماً مثل البصمة ، عندما التقيتها أول مرة ، وعندما صافحتها ، ولم يحتو فراغ مكتبي

الصغير المتواضع حضورها، فاض وعبر، تنسجت على الفور تانيا، لم يكن ذلك مطابقا بالضبط، لكنه قريب، يوحى بها، يستدعى الغائبة، أو هكذا شبه لى. ربما المرة الأولى التي أعرف فيها أمراً كهذا، إذ اعتدت استدعاء ملمح من هذا أو تلك عبر قسّمات الوجه أو لون العينين أو طريقة النطق أو انفراجة شفّتيه أو لمعة عينين وتألّق نظرة، أو خطوة ما. فما أدركته وخبرته أيضاً أن لكل مفرد أسلوب فى المشى، فى التقدم إلى الأمام أو التراجع إلى الوراء، وهذه النقطة تحديداً دقيقة، مما يطول الحديث فيه ويحيد بنا عن القصد.

عند استعادتي لحظة لقائى الأول بجانكا، أفهم تلك العبارة التي ترددت على مسمعى كثيراً، عندما يقول أحدهم أنه أحب فلانا لأنه من رائحة فلان، يقصد قربه منه، لكننى بعد اللقاء الأول أدركت أن التعبير ليس مجازياً، ليس تجريداً بل أساسه مادى، ثمّة رائحة تستدعى أخرى.

كان ممكناً أن ينتهى لقائى بجانكا بيتكوفاً عند هذه اللحظات، جاءت إلى القاهرة لأول مرة مزودة برسالة من تانيا، الحق أنها ليست مكتوبة، بل شفّية زودتها باسمى، واسم صاحبي محمد عودة، وعرفت جانكا طريقها إلىّ، كان ممكناً أن أكتفى بترحيب متحفّظ. فما أكثر المتردّدات. العبارات القاصدات إجابة على تساؤل ما، أو مبديات الرغبة فى التقصى والبحث عن شأن، لكن ما أندر اللواتى يحركن عندي أمراً، شيء لا أقدر على توصيفه أو الجهر به، لكننى أكتفى بالتلميح، لعل وعسى.

لم تثر جانكا رغبتى الحسية كما يحدث عند اللحظة الأولى مع أخريات، مررن بى أو مررت بهن، بعضهن بادلتته الحديث ولهب تتفاوت حدته يتقد داخلى، يآز عندى، وبعضهن لمحتهن من بعيد، ولعللى أكون فسرت فى تدوينى المرسوم بخلسات الكرى، حتى وإن اختلفت القصة.

دعوتها إلى القاهرة القديمة، إلى المكان عينه الذى صحبت فيه تانيا مع اختلاف الظرف. إذ انتقلت من الحارة إلى حلوان الضاحية الجنوبية، أما الوالدة فرحلت، والشقة الصغيرة يسكنها آخر، لكن ما لم أفتقده ترحالى الدائم عبر المكان، وصلاتى بمن تبقوا هناك، بل إن دعوتى للبعض تكون حضماً لى على التردد والجلوس فى المكان، أى زمنى الخاص أيضاً، لكن المؤكد أن اقتراحى لم يكن دافعه ذلك. إنم صحبة جانكا، إيجاد خصوصية لوقت محدد ثمضيه معاً، فى الجزر المتبقى من مقهى الفيشاوى التقينا.

هى أطول، ممشوقة، قصيرة الشعر، لكن عبيرها زادنى يقينا بحضور تانيا، خاصة فى هذا الفراغ العبق بالنعناع، والشواء، وتقلية البصل، وما يتخلف عن طشة الطعمية، وتقلب الباذنجان فى الزيت المقلى، واستحضار العطور، طغى ما ينبعث من جانكا على ما عداه، لا ترتبط الرائحة بالجسد، وتشبع الملابس بها وتسرب بعضاً منها إلى جهات شتى، إنما ترتبط بالحضور، بالتكوين ودرجة القربى فى جلستها الأولى بالمقهى أمام المرأة البيضاء، المؤطرة بزخرفة جصية عتيقة، يمكننى رؤية ظهرها ولون بشرتها وحدود انسداد شعرها حتى

حافة العنق، فى هذه الجلسة أخبرتنى بمرض تانيا الخطير، بعد عودتها من الهند شكت أعراضا وبعد الفحص ثبت أنه هو، تعالج الآن بالكيمائى وثمة أمل. أبديت أسفا، ولاح حزنى ولعلها المرة الأخيرة التى استحضرت فيها تانيا بقوة، وفتها، جلستها قرب أمى، دعوتها للرقص، ملامتى لخصرها الهش الذى يستحيل لمسه وقت تدوينى هذا، لأنه تدرى، عاد سيرته الأولى، هذا ما أطلعتنى عليه جانكا عبر رسالة تلقيتها بعد لقائى بعامين.

عندما التقيت جانكا للمرة الثانية كانت فى زيارة رسمية، اتصل بى مسئول العلاقات الثقافية بوزارة الخارجية، قال إنها طلبت تحديد موعد معى وقضاء يوم كامل يصحبتى فى القاهرة القديمة فهل يسمح وقتى بذلك؟

أبدت الترحيب، فى الموعد المحدد بعد أسبوعين جاءت بصحبة موظف من المراسم انصرف بعد لحظات، وبعد أن حددت له موعد عودتها إلى الفندق، بقدر ما بدت متحفظة فى البداية، كلماتها محسوبة، كذلك إيمااتها، بقدر ما لاح لى تهيؤها، بدت متسقة، توحى ملامحها بشيء ما لم أستطع تحديده بدقة، لكن المؤكد أن رائحة تانيا غالبية، لكننا لم نذكرها قط، لم نتحدث عن موضعها ورحيلها، وكنت تواقًا إلى الإستفسار عما إذا كانت ذكرتنى، أو جرى اسم على لسانها، كثيرا ما يخطر لى ذلك إذا تعلق الأمر بمن عرفتهن لفترات قصيرة أو خلال لقاءات عابرة، أو عند التقاطعات الصامتة التى لا يجرى فيها أى حوار، مثل الطرق، والنواصى،

والمقاهى ، والمحطات ، والمطارات ، تعلق بذاكرتى ملامح عابرة ، لم أطلعها بالبصر الحسير إلا لثوان أو لحظات ، أتساءل ، هل علقت ملامحى بهن كما جرى الأمر عندى ؟ أحيانا أتساءل عمن سيتردد عليه بعض من ظلالى أثر غيبابى الأبدى وذهابى إلى هناك ، من أخسر الذاكرين لى بالاستدعاء بالنطق أو الصورة ؟ أول ما خطر لى مثل هذا الاستفسار غير المنطوق ، غير المفصح عنه . كان أثر غياب الوالد - رحمه - الله ، ثم شملنى الأمر ، بعد غياب الذكر يتم التلاشى .

صحبتها إلى الأماكن الأثيرة ، المقهى ، القبة وارفة الظلال ، المسجد أزرق السقف ، إلى البيت عثمانى الطراز ، إلى أزقة ينذر دخول أجنبى إليها ، جلسنا بمقاه صغيرة غير مطروقة إلا من أبناء الحى ، فى الأماكن الضيقة أقرب إلى الحد الممكن محاولا تنسمها ، لإيجاد الشبه برائحة أول من دعتنى إلى الرقص ، ولمست يدي خصرها ، ما تزال هشاشة تسرى عندى ، كان حضورها المستحيل قويا ، من خلال مشول جانكا . قالت إنها قرأت رواية لى باللغة الروسية ، كدت أقول إن تانيا كانت تتقن الروسية وأن حواراً جرى بيننا يوماً أبديت حسدى عبره لأنها تقرأ تشيخوف بلغته الأصلية ، فقالت إن الروسية تدرس منذ المراحل الأولى ، تماماً مثل البلغارية ، قلت إن الحروف متشابهة ، قالت تانيا يوماً إن البلغار أقرب الشعوب السلافية إلى الروس ثقافياً وعرقياً ، قالت جانكا إنها عرفتني أكثر ، قلت لها إن هذا ما أذكره لصحبنى دائماً ، فمن أراد أن يعرفنى فليقرأنى ، أوجد فيما أكتب أكثر من وجودى ومشولى هذا ، تطلعت جانكا راضية صوبى فأدركتنى نسائم القربى ، غير أن الوقت محكوم ، مؤطر ، وغدا ستقلع عائدة إلى

بلادها ، ولا أدري متى يلتقى الحى بالحى ، لكننى قابلتها بعد شهرين  
صدفة ، ولم أتوقع ذلك .

حتى وصولى إلى بلاد المغرب لم تخطر لى جانكا قط ، كذلك تانيا  
التي راحت تتراجع ، كأنها تقف عند نقطة ما ، بينما قطار حفى  
يأخذنى ويوغل مبتعداً بى ، هكذا تنأى ملامحها ، فيما عدا العالق  
بالذاكرة ، وكان أقوى ما عندى عطرها إذا وجد ما يشيره ، ولم يحدث  
ذلك إلا قرب جانكا التي أصبحت ملماً بتفاصيل شتى عنها ، رغم  
فترات صمتها إلا أنها تندفق فجأة ، تذكر أموراً دقيقة ثم تتوقف  
فجأة ، تكف .

منها عرفت إنها زوجة لكاتب مسرحى معروف وأنه درس مثلها  
العربية لكنه لم يعمل بالاستشراق ، وأنها منفصلان منذ سنوات ،  
كل منهما يعيش بمفرده ، على مقربة من بعضهما ، لا يفصلهما إلا  
شارعان ، أحدهما مخصص للمشاة ، من شوارع صوفيا القديمة ،  
تسكن شقة صغيرة من حجرتين ، إحداهما مكتب ومكتبة والأخرى  
للنوم تعمل ساعات طويلة بعد عودتها إلى البيت ، تترجم مقالات  
وتقارير سياسية من وإلى العربية ، كما أنها ترافق الضيوف الكبار من  
رؤساء الدول وتقوم بالترجمة الفورية لكنها تتوق إلى ترجمة نصوص  
أدبية . إذا ما تقاعدت مبكراً سوف تتفرغ لذلك ، أمها ما تزال تعيش  
فى الريف ، تراها مرة فى السنة ، تسافر كثيراً . خاصة إلى الأقطار  
العربية لكنها مهام رسمية ، ليست أجازات ، تتوق إلى رحلة من أجل  
الرحلة .

بعد ساعتين من استقرارى فى الفندق المطل على المحيط

الأطلسي، أحرص على إزاحة الستارة الثقيلة والخفيفة، بحيث إذا تمددت فوق السرير يمكنني رؤية الزرقة اللانهائية، إنه المحيط وفي تلك اللحظة رن الهاتف . .

«متى وصلت . ٤» .

زعقت .

«جانكا . .» .

«عرفتني . .» .

قالت بهدوء

«لا . . سأتي إليك . .» .

وقفت وراء الباب مترقبًا، وعندما لامسته يدها، طرقته بخفة فتحت على الفور، لأغلقه وتستقر بين ذراعي، بقيت ساكنة، وفي هذه اللحظة بدأت سعيي إلى التأكد، استعادة الرائحة القديمة، شفتاها رقيقتان، احتويتهما، لكنها أفلتت، إلى المقعد المجاور للمكتب الصغير، جثوت مبديا كافة ما أقدر عليه من بث وتجسيد حال، تقبيل شعرها وأصابع يديها، وغرس أنفي في سطح جسدها. لم تبد ممانعة عندما أوغلت بأنفي مقبلا، باحثًا، منقبًا، حتى إنني رأيت سروالها الأبيض الذي تتسرب من حافتيه شعيرات غامقة، لم تدفعني، قامت إلى السرير، تبعتها، وتزايد لواذي بها، كنت أدس أنفي في ثناياها، متشبثًا بالرائحة المشعة، الدالة على وجود آخر لم يعد قائمًا .

«اهدأ . . اهدأ . .» .

لم تصدني جانكا، لكنها لم تقابلني بالمثل، ولم أكن أسعى إلى الإيغال والتوحد، بل ربما تمنيت أن تظل على حالها، ألا تمضي معي إلى ما هو أكثر، وهذا حال غريب بالنسبة لي، كنت راضيا في التثبيت بهذا الأريج العتيق، التأكد من مصداقته، هل أدركت؟

هل فهمت بحسها الأنثوي؟

لا أدري، لست متيقنا، لكنها عندما أفلتت إلى الشرفة، انحنت تواجه المحيط، وتسربت النسمات إلى داخل الغرفة، لم أكمل سعيي، تمددت على الفراش، متطلعا إلى ظهرها المنحني، ومدتها البصر إلى بعيد، جمد كل منا في حيزه، وهذا آخر ما بقي منها عندي.



## آنييت

ظهورها يؤنسن المكان، يضمنى عليه منها ويعيد صياغته، لا يمكننى تحديد لحظة معينة أو يوم محدد أشير إليه فأقول إنها ظهرت فيه وتمكنت حدقتاى منها عنده.

أستعيرها قادمة عبر الدرج من أعلى أو صاعدة، متقدمة دائما غير مدبرة، لم أستوعبها خلال مرات قدومى إلا على مهل. بثها هادئ يسرى عبر مداخل مجهولة إلى النفس والذاكرة.

متسقة، ليست بالطويلة أو القصيرة، لا تميل إلى امتلاء أو نحافة، بتكوينها تعد وسطا، رداؤها المفضل سترة من الجلد الأسود، وسروال جلدى لكنه رمادى، تمضى على أطراف أصابع قدميها، مشرعة النظرة، متجهة الصوب، يظن كل رائي أنه المعنى، لو مضت عبر شوارع مدينتى حيث مستقرى ومسعاى لما ظننا أحد أجنبية، قاهرية الملامح، نيلية البشرة، إيزيسية الطلة، خاصة الجانبي منها. لذلك تمتد عندى، فلا يمكننى القطع بلحظة تبدأ فيها أو التنبؤ بأخرى تنتهى عندها وتولى، فهى باقية رغم انقطاعى، وانقضاء مدة لم تدخل خلالها إلى إطار محسوساتى.

بدأ الأمر ولم يبدأ عندما دعانى صاحب حميم إلى الغداء فى هذا

المطعم عتيق الطراز، زخارفه مشرقية المس، تنتمي إلى حركة الفن الجديد التي ذاعت في مطلع القرن العشرين، لاحظت إزدحامه، ومألوفية مناخه، وحميمية فراغه، لم أرها هذه الظهيرة، بالتأكيد لم يقع عليها بعدى، يشق على القول أننى لم ألاحظها، ينال هذا منى عندى، بعد شهور جئت قاصدا الفندق القديم الذى لم أجد فيه غرفة خالية أول مرة. أعجبنى موقعه، تمسك عمارته بناصيتى طريق سان ميشيل الرئيسى، وشارع راسين الفرعى. تحته مكتبة جبير متعددة الطوابق التى اعتدت أن أقتنى منها مجلدات الفن التشكيلى وموسوعاته، خاصة الطبقات الصادرة فى السنوات الماضية، ما يعينى اللوحات فى حد ذاتها، موقع الفندق يخفف عنى عبء التجوال بأحمال ثقيلة، أما عتاقة الحى وما يحويه من معارض للفن المعاصر ودور نشر ومقر الجامعة القديم فكادت تلك المسافة التى تفصلنى عن القاهرة القديمة أن تتلاشى، هناك المركز أيضا جامعة مرتبطة بالقداسة، الأزهر، لم تتجاوز مدد إقامتى الأسبوعين، لكننى اعتبرت المنطقة مقصدي، فيها تقع دار النشر التى تصدر كتيبى، والمقاهى التى اعتدت أن أتأمل منها حركة العابرين. منذ أن رحل صحبى الذين اعتدت الإقامة عندهم، رجعوا إلى مصر، عرفت ذلك الفندق.

يحوى عشر غرف، صاحبه سيدة عمجوز. لم أرها إلا مرة واحدة، تمتلك ثلاثة فنادق فى مناطق مختلفة كلها من نفس المستوى. بجمتان، غير أننى أقيمت الصلات الوطيدة مع مديرته، فنزولية الأصل، والموظفين الذين يتعاقبونه على إدارته، ومنهم طالب مغربى

من تازة، يجيء في العاشرة ليلاً ويسهر حتى الصباح، مرح، يطلب منى أن أتحدث بالعامية المصرية، شيئاً فشيئاً أصبح الفندق مقصداً لعدد من معارفي، وأصدقاء ابني وابنتي. لرخص إيجاره، وحسن موقعه، وسهولة الألفة مع من يديرون أمره.

من صاحبي المغربي عرفت ما تقف إليه عن أنيت ومن يمت إليها، المكان والبشر، الفندق رقم ثلاثة، لم أعرف قط المبنى رقم واحد، يبدأ الشارع بالفندق، إلى جواره باب أخضر دائماً أراه مغلقاً، إلى أن أدركت علاقتها به يوماً بالصدفة، في ذلك العصر علمت أن أنيت تمت إلى المدخل، وأن المبنى كله يتصل بها، المطعم ذو الثلاثة طوابق، عريض الواجهة، والباب المؤدى إلى الطابق العلوي حيث تقسيم. لا أستدعى نوافذه، كذلك واجهته، حتى الرصيف المحاذي له. إلا وتطالعني. رغم ذلك فلا أقدر على تحديد تلك اللحظة التي يمكنني القول عندها أنني رأيتها لأول مرة!

رغم أنني جئت إلى المطعم من قبل مدعواً. لكن صار المكان إلى وصرت إليه بعد نزولي الفندق واتخاذ مستقراً، سواء جئت لليلة عابرة أو مقيماً لعدة أيام. إنه المبنى المجاور مباشرة، مبنى عريض الواجهة، نوافذه مستطيلة، ملامح العمارة الباريسية متقاربة. ليس لأنها شيدت في وقت متقارب، ولأنها جاءت ملبية احتياجات البيئة والمناخ. إنما لشروط حاكمة ما تزال سارية فمن أراد التجديد فليقدم. لكن في الداخل، عليه الاحتفاظ بالواجهة حتى لا يقع التناقض بين المباني المتجاورة وبالتالي يختل إيقاع المدينة. أول ما اكتشفت ذلك في

مدينة بولونيا الإيطالية العتيقة ، عندما فوجئت بالمفارقة الواقعة بين واجهة الفندق العتيقة . والطوابق الحديثة بالداخل ، وصفت ذلك بدقة فى تدوينى «شطح المدينة» .

فى الفندق مازال الداخل متسقاً مع الخارج ، ولعل ارتفاع فراغ الحجرات واتساعها من مصادر ألفتى . إذ عرفت فنادق أخرى يكاد السقف فيها أن يلامس الرأس ، كذلك المبنى المجاور ، حيث المطعم يشغل ما يوازى ثلاثة طوابق ، يعلوه سكن بعرض مساحته كلها تقيم فيه أنيت وزوجها وابنها ، أحطت بذلك على مراحل بعد إقامتى فى المكان . نومي فى الفندق ، وجلوسى بالمطعم الذى يبدأ العمل فيه مبكراً فى العاشرة ، يستقبل الزبائن كمقهى ، أو طبقاً للافتة المعلنة «صالون شاي» ، تخلو المناضد من الأطباق والشوك والملاعق والسكاكين ، قبل الثانية عشر ، بحوالى عشر دقائق يبدأ العاملون فى إعداد أدوات الطعام ، عند الثالثة يزيلونها ، يصفون الأكواب فقط ، وما بين السابعة والحادية عشرة يعد المكان كله للطعام ، ما يضاف شمعة صغيرة داخل كأس صغيرة ، عند جلوس البعض يتم إشعالها ، وفى الحادية عشرة يعود المكان إلى تقديم المشروبات فقط ، ينتهى العمل فى المطبخ ، تتغير طبيعة المترددين . معظمهم يحتسى البيرة البلجيكية القوية التى يقدمها المكان باعتباره متخصصاً فى أنواعها .

كثيراً ما تناولت غذائى أو عشائى ، وإذا لم أقدر فإننى أحرص على المغادرة قبل مواعيد الغداء أو العشاء حتى لا أحتل موقعا لآخر جاء راغباً فى الطعام ، لم أخلف عادتى تلك رغم أن طول مكوثى وكثرة

المترددین علی ، وتبادل المودة مع العاملين جعلهم يتسابقون للترحيب  
بى ، والنطق بعبارات دقيقة ، خاصة عند ظهورى بعد انقطاع ، وكثيرا  
ما أضع حقيبتى وأغادر الفندق على الفور إلى المطعم متوقعا رؤية  
أنيت ، وجمال الجمزائرى ، وبيير الفرنسى ، وجاك الكورسيكى ،  
وغيرهم ممن أعرف ملامحهم وأجهل أسماءهم ، ومنهم سيمون الذى  
مضى وقت غير قصير قبل أن أعرف بملكيتته المكان وتوليه الإدارة ، له  
شريكان آخران ، يعيش أحدهما فى مدينة انتويرب البلجيكية ويتاجر  
فى ماس الكونغو ، أما الثانى فيدير مؤسسة مالية مقرها العاصمة  
الهولندية أمستردام ، منهما المال والمشاركة ونصيبهما من الأرباح ،  
لفترة ظننته أحد العاملين ، إذ كان يرتدى مربطة بيضاء باستمرار ،  
يكف عن التحرك ، يقوم بالخدمة فى كل اتجاه ، يختفى فى الطابق  
السفلى حيث المطبخ ، وحيث مصدر تلك الرائحة الخاصة ، الغامض  
التي ارتبطت عندى بفراغ المكان ، واللون الأخضر العتيق الغالب على  
طلائه ، والمرايا المرسوم عليها زهور وأغصان طبقا لتصورات الفن  
الجديد الذى به مس من زخرف شرقى ، والأعمدة المكسوة بالمرايا ،  
والبار العريض ، الذى يبدو كمتحف لزجاجات مختلفة الأشكال  
والأحجام ، أنواع لم أرها من المشروبات ، ولكن الصدارة لأنواع  
البيرة البلجيكية والتي تتجاوز الاثنى عشر ، رائحة مكنونة ، سارية ،  
سميكة حتى لا أكاد أرى قوامها فى الفراغ ، نتاج دهون وتوابل  
وبهارات شرقية وتخليط عناصر ، غير منفرة ، بل إنها من عناصر  
التخصيص فلم أعرف مثيلا لها فى أى مكان آخر ، بعد أكثر من ثلاثة  
أعوام يمكننى القول إننى أحطت علما بما يتعلق بالمكان ، لا يمكن القول

إن هذه المعلومة أطلعت عليها يوم كذا، ساعة كذا، إنما يشبه الأمر بما يعرفه الجار عن جيرانه دون التوجه إليهم مباشرة أو الاستفسار قصداً. إنما تتجمع الجزئيات من جملة هنا واستفسار هناك، حتى يصبح المتعايشون عن قرب ملمين بكل ما يمكن معرفته عن بعضهم البعض، دون أن يتبادلوا الحديث مباشرة، أو أى اتصال، هكذا عرفت أن أصل المكان يعود إلى القرن التاسع عشر، فى البداية كان مطعماً عاماً يتبع إدارة الجامعة القريبة، يقدم الحساء إلى الطلبة بسعر زهيد جداً، ربما ولج فراغه يوماً الشيخ رفاة الطهطاوى، أو بعض من أعضاء البعثة التعليمية المصرية الذين أوفدهم محمد على باشا، أو الذين تعاقبوا على الدراسة فى السوربون أو الكوليج دو فرانس، فى بداية القرن العشرين أغلق المكان لعدة سنوات حتى اشتراه روسى الأصل ممن هاجروا بعد الثورة البلشفية، كان مغرماً بالفن الجديد، ولذلك أعد الزخارف والمرايا والمقاعد والمناضد وفقاً لخطوط هذا الاتجاه الذى كان يهيم به، وهكذا اتخذ المكان مرجعية ظلت ملازمة له حتى الآن فعندما جاء سيمون وشريكه فى بداية التسعينيات من القرن الماضى، كان من شروط البلدية الاحتفاظ بالطابع القديم للمكان، إذ إنه يكاد يكون الوحيد المزخرف المنسق طبقاً للفن الجديد، هكذا تم توثيق العقد مقابل مبلغ ستة ملايين فرنك فرنسى وقتئذ وأعيد افتتاحه بعد الإصلاحات الملتزمة بالطابع، بعد أن ظل مغلقاً منذ عام تسعة وثلاثين، أى السنة التى اندلعت فيها الحرب العالمية الثانية، سافر الثرى الروسى إلى الولايات المتحدة. غاب خبره، وظل المكان مغلقاً لسنوات طويلة، لم أعن بالاستفسار عن وضعه القانونى، أو ما آل

إليه ، لكننى علمت أن اتفاق البيع جرى بين سيمون وشريكه من ناحية والبلدية من ناحية أخرى . ولأنه المتفرغ لإدارة الشأن ، استقر بالطابق العلوى ، يؤدى إليه المدخل المجاور والذي يقع فيه المكان والفندق ، باب خشبى أخضر غامق ، موصل دائما ، أمامه لقيت أنيت ، كانت بصحبة ابنها ، فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، قدمته إلى ، بدت مختلفة عن المظهر الذى أراها به . كانت ترتدى معطفا أسود من الفرو المجعد ، مغلق حول عنقها ، مما أبرز وجهها وهدوء ملامحها ، بدت أعمق راحة ، واطمئنانا ، خارج إطار الذهب والمجىء ، لا بد أنه يوم عطلة لها ، أو عائدة من زيارة لا صلة لها بالعمل ، كتاب صغير عن المومياءات الملكية ، كنت أحمله لأقلب صفحاته عند جلوسى بمفردى فى ركنى المفضل الذى أواجه فيه البار المزدهم بالزجاجات والضاج بالخدمة ، قدمته مبتسما إلى الابن الذى لزم الصمت خجلا أو خشية .

« هذا لك . . . » .

فى اليوم التالى صافحنى سيمون مرحبا ، قال إنه يشكرنى على إهدائى هذا الكتاب الجميل لابنه ، قلت إن هذا أمر بسيط ، وعندما أويت إلى ركنى استعدت ملامحه فسخيل إلى أنه شاء إبلاغى رسالة متضمنة فحواها بلوغه أمر اللقاء العابر بسيمون وما دار بيننا من حوار قصير !

من ناحيتى لم أبد أى علامة تنم عن خصوصية انتباه أو فرادة اهتمام ، مع انتظام ظهورى ومرات مكثى ، فى معظم الأحيان

بمفردي ، أو أثناء لقاءاتي بصحبي أو ذوى العلاقة بعملى ، توثقت  
صلتى بالعاملين ، خاصة جمال جزائرى الأصل ، سمى ، أو إيف  
الفرنسى ، أو خادم الرسول السنغالى . لكل منهم عندى منزلة . ولدىّ  
ما يمكن أن أرويه لكن عبر مجال آخر ، إنما سعى هنا إلى استحضار  
آنيث وتمثلها ، ذلك أنها ذات نبع هادئ ، لا ينقطع بمجرد غيابها أو  
خروجها عن دائرة البصر ، وقد عرفت من يقاربتها فى قوة التأثير  
وعمق الفحص ، لكنهن أجمعين لا يبلغن مقدار بثها ، ومطواعية  
إرسالها عبر توالى الأوقات التى تمر كلها بسرعة .

حتى الآن لم أعرف موضعها بالضبط فى المكان إن كان لها مثل  
هذا المقر ، تظهر فجأة فى القاعة الرئيسة قادمة من الغرف الخلفية حيث  
إعداد الطعام ، وعمر يصل إلى ركن مخصص للشطائر والأطباق  
السريعة وشرب البيرة البلجيكية التى اصطلفت أنواعها فوق الأرفق ،  
وهذا الركن لم يكن موجودا عندها أول مرة ، تابعت ظهوره على  
مراحل خلال ثلاث مرات متقاربة نزلت فيها إلى باريس ، كان سيمون  
يبدى الهمة ، يبدو مرتديا لباس العمل الأبيض ، لم أره قط ساكنا  
دائما يعمل ، إما يقدم الأطباق إلى رواد هذا المحل ، أو يمسك سكيننا  
وفخذا محفوظا يسويه تمهيدا لتقطيعه إلى شرائح الجامبون ، لهذه  
الحركة الدائمة ولقيامه بأعمال شتى ، مثل صب البيرة من  
الزجاجات ، أو من الصنابير الخمسة المتصل كل منها بخزان يحتوى  
نوعاً خاصاً علق رمزه أو علامته على الفوهة ، قبل أن يخبرنى صاحبى  
الجزائرى بموقعه ظننته أحد العمال . وتصورت رجلا آخر هو المدير أو  
صاحب المكان ، إذ كان قصيرا ممتلئا مهيب الحركة ، يرتدى نظارة ذهبية



الإطار أشيب كثيف الحاجبين ، ينظر رغم قصر قامته من عل إلى كل الموجودات ، لكنه بالغ التهذيب عند مقابلة الزبائن ، يسألهم عما إذا كان ثمة حجز ، فإذا تلقى إجابة بالنفى . سارع يتقدمهم إلى الأماكن الخالية مشيراً إليها ليختاروا ، عندما علمت أنه مضيف مثل الآخرين ، تذكرت ما رواه توفيق الحكيم فى يومياته أثناء عمله نائبا بالأرياف ، تلك السيدة العجوز التى وقفت تواجه المحكمة ، وكان القاضى صغير الحجم ، ضئيل البنية ، أما وكيل النيابة فكان ضخما ، مهيباً ، جهورى الصوت ، اتجهت السيدة إليه عند حديثها ، واضطر القاضى ، رئيس المحكمة إلى تنيبها أكثر من مرة : يا ست أنا القاضى !

المكان مفتوح على الداخل ، لا يطل على الخارج ، أى الشارع الضيق إلا من خلال منضدتين فقط . ورغم حرصى على الجلوس إلى أحدهما فى البداية ، إلا أن مكاني المفضل أصبح فى مواجهة البار العريض العامر ، المدجج ، والذي أكد لى سيمون أنه يعد من أقدم القطع فى باريس وأكثرها فريدة ، وأن صيانتته تكلف كثيرا لندرته واختفاء الشركة التى صممته وصاغت أجزاءه ، أدركت أن العلاقة تبدأ وتتوطد من الداخل وإلى الداخل ، بعكس مقاه أخرى عرفت فى المدينة الأساس فى تكوينها أنها مفتوحة على الخارج ، مثل مقهى «الرحيل» القريب من النهر ، ومقهى ساحة السوربون ، وأخرى عرفت عابراً .

رغم محدودية الفراغ ، إلا أن عناصره تضىء سعة ، وحميمية ما ، أما توقع ظهورها . ثم بدأه ذاته ، فيتحول المكان كله إلى رياض فسيحة ، فكان للزخارف المرسومة على المرايا العتيقة أريج ، واللون

الأخضر الغالب له طراوة العشب، لا يلفت تناسق ملامحها وهدوء سماتها النظر للوهلة الأولى، لكن مجرد مرورها في مجال الرائي، أو المتواجد، يحدث أمرا، من الصعب تفسيره أو تعيينه، فيه بهجة وراحة وثيرة وتمنى لو أنها دامت، استمرت.

أدق حالاتها وأوفرها حضوراً وأشرفها رهافة، عند سعيها إلى الباب لمقابلة قادم، الترحاب عينه، تبدو ملامحها داعية، حاضرة على توسد حضورها، الاستكانة إليها لذلك يتمهل القلب في ركضه ويتأنى.

عرفت منها ذلك وصنته بخاطري وذاكرتي، فإذا ما ناء بى رهق أستدعيت طلعتها خاصة تلك المرات التي ما إن ولجت فيها الباب حتى أقبلت على مرحبة وسألتنى عن أحوالى ثم تقدمتنى إلى حيث اعتدت الجلوس فى مواجهة البار.

من أعلى تخطو على الدرج إلى أسفل.

من الصالة تصعد إلى الطابق الثانى

من الحجرات الخلفية تظهر، تستدبر لتدخل الحيز الفاصل بين منضدة البار والأرفف الحاملة، عيناها المؤطرتان بتراتيل غامقة، نائية، يزداد عمقها عندما أستدعيهما، تلك اللحظة عندما توقفت أمامى فجأة، والتفتت لتخاطبنى بحميمية شاكية..

«لا تتصور إلى أى حد أنا مرهقة...»

## ديبورا

عندما قال صاحبي ، عالم النفس الشهير ، مصطفى صفوان إنه سيدعوني إلى مطعم نادر وجود مثله الآن ، يقدم طعام المعلمين القدامى من تجار سوق الخضار والفاكهة واللحوم والأجبان والطيور المدبوحة ، توقعت أن أتعرف على مكان له فريدة وخصوصية ، لكنني لم أتوقع أبدا لقاء شابة ، جميلة ، ذات سعى وحضور ، وأنني لن أتبادل معها إلا كلمات قليلة جداً ، لكنني سأدرك أنها علامة فارقة . دالة ، خاصة عند استعادتها ، وتفحص اللحظات التي تقاطع فيها سعينا وتلاقى . لذلك تبدو محاولة اقترابي منها شاقة ، تحتاج إلى تمهيد وتقديم ، غير أنه لم يقع ما يمكن أن يلفت النظر أو ما يمكن أن يشكل مادة لواقعة يمكنني روايتها شفاهة ، فما البال بكتابتها؟ كيف أقدم على تدوين ما لم يقع ، ومحاولة النفاذ إلى ما لم يكن؟

لهذا لن أبدأ الحديث عن ديبورا ، فما زال حالها غامضاً ، مستعصياً . لم أدرك منه إلا ما أدركته مع توالي الأوقات ، إنما سأذكر بداية من كان سبباً لدخولها مجال بصرى ومجرة رؤيتي .

عرفت مصطفى صفوان اسماً قبل أن أثق به شخصاً ، إذ استعرت من دار الكتب المصرية كتاباً لسيجموند فرويد عنوانه «تفسير

الأحلام». كان ذلك فى مستهل العقد السادس من القرن المولى ،  
مازلت أذكر غلافه الرمادى الرصين ، والأزرق الغامق للعنوان  
واسمى المؤلف والمترجم ، وشعار دار المعارف ، منارة الإسكندرية ،  
بل ما زلت أعى شكل الحروف المتسمية إلى آلة طبع ، اعتبرت وقتئذ  
نقلة ، وكانت الحروف تتشكل من رصاص مصهور له لمعة الفضة ، ثم  
تندمج فى بعضها لتصبح سبائك مستطيلة أو مربعة ، تعود لتتنظم من  
جديد حروفا ، حروفا . أختفى ذلك وقت تدوينى هذا . اليوم السابع  
والعشرين من الشهر الخامس ، عام ألفين واثنين بعد ميلاد السيد  
المسيح ، بعد أن فرغت من القراءة تمنيت لو اقتنيت هذا الكتاب ، لكن  
سعره كان مرتفعا بالنسبة لى ، يفوق كافة إمكانياتى ، كان جنيها  
ونصفا ، حقا . . إن الأمر نسبي لا أدرى قبل أو بعد اطلاعى على  
تفسير الأحلام ، قرأت إعلانا فى الصفحة الأولى من جريدة صباحية  
كبرى . لا أذكر اسمها الآن ، عن ظهور الترجمة العربية لرواية جسر  
على نهر درينا للأديب اليوغسلافى إيفو أندريتش ، الحاصل على  
جائزة نوبل العام السابق ، كان السعر المعلن عنه تسعة وعشرين قرشا .  
وتتكون من حوالى أربعمائة صفحة ، وقفت فى الفصل - إذن جرى  
ذلك قبل يوليو عام اثنين وستين وتسعمائة وألف - كانت ديورا فى  
رحم الغيب وقتئذ ، وفاليريا الروسية على وشك المجيء . وتانيا فى  
صوفيا طالبة جامعية ، كذلك جانكا ، أما أنيت الفرنسية ، وتاتيانا  
العربية ، وكريستين الفرنسية ، وجابرييلا الإيطالية ، ولى تشى  
الصينية ، وحُميرا الفارسية ، وهدى الأمهرية فلم يلحن بعد فى  
الوجود ، كنت أحدث فى حصة تتصل بطرز السجاد ، الأستاذ اسمه

سيد الروبي، عائد لتوه من الصين، وهذا مما أثار مخيلتي وقتئذ. وكان لطيفا. رحب الصدر، يصغى إلى تساؤلاتي حول تلك البلاد البعيدة، وشخص ماو الذى أكن له احتراما وإعجابا، دائما حذرني منه الأستاذ وأنذرنى بخطورته وما يمكن أن يؤدي إليه، لم أع تحديره إلا فيما بعد، لا أدري السياق الذى جعلنى أتحدث عن ارتفاع سعر الكتاب المترجم، قال إن السعر معقول بالنسبة لعدد الصفحات، فكرت وقتئذ. . إن ما يعد خارج إمكانياتي يعتبر ميسورا بالنسبة له.

جسر على نهر درينا، وتفسير الأحلام. أحد سبعة كتب أقدمت على نسخهم فى هذا العام لاستحالة اقتنائى ورغبتى فى الاحتفاظ بهم، كنت وافر الهمة، مكتملا بالنسبة إلى ما صار إليه حالى الآن، قادر على تمضية الأوقات فى نسخ الصفحات المتوالية، بالنقطة والفصلة، حتى الهوامش باللغة الألمانية التى لا أتقنها رسمتها. هذه الكتب تعلق بمخيلتى حتى الآن. أذكرها شكلا ومضمونا، وبالطبع علق عندى اسم مصطفى صفوان، لذلك عندما قال صاحب عزيز التقيته فى باريس عام تسعة وسبعين أنه ماض إلى لقاء الدكتور مصطفى صفوان، قلت على الفور. .

«مترجم تفسير الأحلام. . .»

أبدي صاحبى دهشة.

«تعرفه كمترجم. . . ولم تذكره عالما نفسيا شهيرا. . .»

قلت إننى أعرف منزلته من العم محمد عودة الذى حدثنى أيضا

عن والده، الشيخ صفوان عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي  
المصري الأول.

قال صاحبي: إذن . . تعال معي . .

في الطريق قصصت عليه نسخي لتفسير الأحلام.

فاتنى تفصيل.

ذلك أن صاحبي هذا بادرني عند اللقاء بدعوة صفوان لي، وأنه  
قرأ لي وراغب في التعرف عليّ، عندئذ قلت على الفور.

«صفوان مترجم تفسير الأحلام . .».

هنا قال صاحبي، واسمه عبدالملك وكان وما زال مقيماً في موسكو  
مراسلاً للأهرام .

«تذكره مترجماً . . ولا تعرفه عالماً . .».

هنا ذكرت له نسخي لتفسير الأحلام فأبدى تعجبه لذلك . عندما  
أصغى مصطفى صفوان إلى تعرفي هكذا به، قال:

«أنت تعبت في الكتاب أكثر مني . .».

قال إنه ترجمه لمتعته ولضرورة وجود النص بالعربية، أما أنا  
فنسخته للضرورة، يمكن القول إن تلك الليلة بداية تعرفي الحميم  
عليه . ونقطة تحول في علاقتي بالمدينة، كما أن ديورا تمثل نقطة تحول  
أخرى في مساري كما سأذكر فيما بعد.

جاء مصطفى صفوان إلى فرنسا، في نفس الشهر الذي انتهت فيه الحرب العالمية الثانية، أي الشهر الذي ولدت فيه. مايو عام خمسة وأربعين، يكبرني بثلاثة وعشرين عاما. أنه يحفظ معالم المدينة، ملم بعمقها، ليس على مستوى الميادين والشوارع والتماثيل والنصب، إنما إلى الأفاريز وتفصيل الواجوهات. وأصص الورود، وأنواع الزخارف، والزجاج الملون المعشق بالجبس، فيما بعد مشيت بصحبته في ليال باردة، رياحها صقيعية، بالذات عند النواصي، يمشى نشيطا، متحمسا، ليصل بي إلى مدخل بناء تنتمي تفاصيله إلى عصر النهضة لكنه جزء من عمارة قوطية الطراز، كيف حدث ذلك، أو يعبر جسرا، ليصل إلى زاوية معينة يمكن منها رؤية تمثال لملاك وحيد فوق كنيسة سان لاشابل التي ولجت فضاءها الأزرق نهارا، معه عرفت المتاحف، وكيفية تذوق الفن التشكيلي، والمكتبات المتخصصة فيه. ومعه أيضا تجرأت على المطاعم الباريسية العتيقة والتي يرتادها الفرنسيون القدامى، وهذا عالم متنوع ثري، أتمنى أن تتاح الفرصة لي لأفصل ما عرفته أو أبته عبر ما أرويه من وقائع، كلما لاقيته يدعوني إلى غداء أو عشاء، لم يتكرر المكان معه، لكن ما يلفت انتباهي ويعلق بي أعود إليه بمفردي أو صحبة، وبعضها أصبح يعرفني من يعملون به مهما تباعدت أوقات ترددي، بل إنني عرفت مطاعم لم يأكل فيها، دعوته إلى بعضها وأبدى إعجابه بها، من ذلك مطعم آنيث، أما البوليدور في شارع الأمير فيعرفه منذ الأربعينيات، لكنه عندما صحبني وأطلع على تاتيانا الضخمة الوارفة، قال مداعبا إنني ذواقة للجمال، كما أنني أجيد الاستمتاع بالطعام، عندئذ ذكرته بما أردده

دائما أننى أستمتع بالأكل الجيد إذا وُجد، فإذا لم يتيسر يكون سرورى بقطعة جبن دمياطية حادقة مع قرن فلفل مخلل ورغيف خبز بلدى طازج ما زال محتفظا بنار الفرن متجاوزاً لكل ما عرفته من نوادر المطبخ، فرنسا أو صينيا، مغربيا أو إيطاليا، قال يوافقنى: يا سلام.. . وهل يوجد مثل الجبن الأبيض؟

يستقر مصطفى صفوان فى مسكن قديم. عمارة شيدت فى العام الذى عادت فيه جيوش بونابرت من مصر، الشقة مقر إقامة وعيادة يلتقى فيها بمرضاة وهذا ما تعجبت له بداية فى باريس، أشهر الأطباء يخصصون حجرة من مقر سكنهم للقاء من يسعون إليهم، سواء كانوا أطباء أسنان أو نفسيين، أو متخصصين فى القلب وأوجاعه، لا يوجد من يتخذ عيادة مستقلة مثل أطباء مصر، مما لاحظته أيضا أن المرضى لا ينتظرون، فلكل موعدة المحدد سلفا، يجرى فلا ينتظر لا يعرف من سبقه أو لحقه، هذا فى العموم.

إذ يجرى مصطفى صفوان إلى القاهرة فلا بد أن يزور بيتى، ويمضى وقتا أمام الأرفف التى تصطف فوقها الكتب، وأن تمضى إلى مطعم لا يتغير، الدهان القديم عند مدخل خان خليلى، يفضل لحم الماعز المطهو على البخار والذى لا يعد بهذه الطريقة إلا هنا، كذلك طبق الفتة المسقية بالخل ومرق الضأن ومغطاة بالثوم المحمر والبصل، تحويجه فريدة لا يقدمها الدهان إلا لزبائنه القدامى، ولا بد من طلبها مقدما. يعرف عم أحمد ظروفى خلال السنوات الأخيرة، فلا يستفسر منى عما أرغب، يصغى بدقة إلى طلب ضيفى، ويدونه



بعناية ، لا يسألنى ، ذلك أنه يعرف ، ولو نطقت ربما تسببت فى نكد من أستضيفه ، فوجبتى من طبق سلطة خضراء يعده عم أحمد بنفسه ، وقطعتان من اللحم المشوى جيدا الخالى تماما من الدهن ، أما الشريد فولى وقته ، لا أقربه حتى ولو من ناحية الذكرى ، أحيانا أتناول ملعقة ملوخية خضراء بالتقليية كرشفة حنين إلى ما اعتبر زادى المفضل مقدارا ليس بالهين من أمدى . أتناول نصيبى على مهل ، حتى يفرغ مضيفى من طعامه تماما ، فمما لقنه أبى لى ، ألا أفرغ قبل الضيف حتى لا أسبب له حرجا إذا طالت مدته وطاب له الأمر .

فى ذلك اليوم قال صاحبى بلهجة العارف ، المطلع ، الملم . .

«إلى مطعم المعلمين . . .»

وقت إصغائى ، وتبدل خطواتى ، من أين لى العلم أنها هناك ، تسعى ، يفيض حضورها يسعى بين الخلق ، من أين لى الإمام بأنها ستودع عندى أثرا ، لولا دعوة صاحبى تلك الظهيرة لأتمت مدتها فى هذه الدنيا ولمضيت بدون أن تلج مجال بصرى ، وأن يتردد أزيزها عندى لمسافات وأوقات .

قرب مركز بومبيدو الثقافى ، كان يقع سوق الخضار والفاكهة التقليدى المعروف بالهال ، عندما اطلعت على صوره القديمة أيقنت أنه أصل سوق الخضار فى العتبة وسوق باب اللوق ، البناء الفسيح ، المغطى بسقف من حديد مزخرف ، تدق الزخرفة وترق كلما اقتربت من الواجهة ، ثمة حروف وأرقام تؤشر إلى زمن محدد ، المرجعية عندى لسوقى العتبة وباب اللوق ، كلاهما موجود حتى الآن ، قائم ،

أما أصلهما النائي فلم أراه إلا عبر الصور الملتقطة فى النصف الأول من القرن الماضى الذى ولدت فيه والمعلقة إلى جدران هذا المطعم الذى بلغناه ظهراً. ولجنا باب البيت القديم الواقع عند ناصية شارعين، أحدهما عريض تمر فيه السيارات، ويصب فى طريق ريفولى الممتد بحذاء النهر، والثانى ضيق لا يتسع إلا لمرور الدراجات وعربات اليد، الصغيرة.

إلى اليسار باب صغير يفتح إلى الخارج، تليه درجتان تؤديان إلى المطعم، غرفة صغيرة عادية، تحوى ست مناخذ صغيرة، يمكن جلوس اثنين إلى كل منها، ويمكن ضم أكثر من واحدة إلى أخرى، منضدة من رخام، فوقها أطباق كبيرة، تحوى أنواعاً من الطعام، من كبدا الأوز المهروس، المحفوظ، إلى سمك الرنجة المملح، الغارق فى الخل الأبيض، والمختلط بشرائح البصل، وسلطة خضراء، وحلوى مختلف أنواعها.

أعرف هذا الترتيب المتبع فى مطاعم فرنسية قديمة تمت إلى منطقة الوسط، سبق أن تناولت الغداء فى مدينة ليون طبقاً لهذا النظام، حيث يتم وضع هذه الأواني الخزفية أمام الزبائن، فوق المنضدة. يتناول كل منهم قدرًا يضعه فى طبقه، وبعد أن يفرغ الجميع يتم نقل الأواني إلى منضدة أخرى أمام زبائن آخرين، مازلت أذكر مذاق العدس أبو جبة، وشرائح السمك فى الزيت والخل والليمون، ولحم أحمر يخالطه جيلاتين، أطباق باردة، تقدم كمشهيات، حتى يتم إعداد الطبق الرئيسى الساخن والذى يرغب الزبون بعد تفحص القائمة

ومناقشة مع القائم على الخدمة ، كان المطعم فى ليون فريداً لم أعرف  
مشيلاً له فى باريس والمدن الأخرى ، هذا المطعم يشبهه لكنه يتفرد  
بوجود ديورا .

عندما تقدمنى صاحبى المجرب وفتح الباب ، تصدت له ، وقفت  
أمامنا حازمة ، مشهرة كيانها المائل من لونين ، بشرتها البيضاء المشربة  
بحمرة ، وسواد شعرها وردائها المكون من قطعتين «بدلة» جاكيت  
وينظلون لونهما أسود غميق ، فهمت من الحوار أنها تعتذر عن تقديم  
الخدمة ، لقدومنا متأخرين ، ولأن الأماكن مشغولة غير أن صاحبى لم  
يتراجع ، ذكر شيئاً ولمحت تكرار لفظ «المدام» ، عندئذ تطلعت إليه  
كأنها تراه من جديد ، ثم أشارت إلى أعلى فأبدى الموافقة بإيماءة من  
رأسه ، أفسحنا لها لتتقدمنا ، وعندما بدأ صعودها علقى بى ودخلت  
مدارها ، كان قوامها القاره المزدهر باستداراته الضاغطة أول ما لفت  
حواسى إليها وثمة شىء آخر فى امتشاقها الكلام وإشهارها الحركة ،  
كأنها ضابط برتبة لواء على الأقل ، تذكرت موقفاً من ألف ليلة وليلة ،  
عندما وصل قمر الزمان إلى مدينة يحكمها ملك جميل الهيئة ،  
استقبله ورحب به ، ولم يكن فى الحقيقة إلا محبوبية قمر الزمان التى  
فرقتها عنه ظروف عديدة لا مجال لتفصيلها هنا ، راحت وهى فى  
هيئة الرجال تراود محبوبها عن نفسه ، فى البداية تمنع ، وقال إنه ليس  
من أهل ذلك لكن تحت التهديد رضخ قائلاً لنفسه إنها مرة وتعدي !

هكذا تمدد إلى جوار الملك فى الظاهر ، محبوبيته فى الواقع ،  
وعندما أمسك الملك بيده وقربها ليضعها بين فخذيه . دهش قمر

الزمان ، تعجب من هذا الملك الذى له فرج !! ثم تكشف له الأمر  
فانقلب الحال بالطبع .

لم تقدم ديورا نفسها باعتبارها ذكرا ، لكن جديتها الشديدة توحى  
بصلة ما بعالم المحاربين فكأنها جنرا لا أنثى ، وهذا معروف متبع  
وبالنسبة لى يشكل غموضا مشيرا ، أن أرى امرأة ذات رتب ، وقبعة ،  
وهيئة بوليسية أو عسكرية ، لم تكن ديورا منهن ، فكل ما هو ظاهر  
مدرك ، متاح منها يشى بأنوثة مجراتية كونية ، أنها من أولئك اللواتى  
يدرك المرء بمجرد وقوع بصره عليهن أنها مصدر ، ليست رجعا  
ولا صدى ، لكن حرصها على إيجاد مسافة بينها وبين المترددين ، من  
تقدم لهم الخدمة بلطف غزير وحزم حاد ، جعل المسافة تبرز منها أمرا  
ذكوريا فى جوهره . هذا التناقض أوجد عندها سرا ، يحرص أمثالى  
على فضه واستيضاح أمره . بالمخيلة إن استحال الواقع .

فى الطابق الثانى قاعة أكبر ، جميع مناظرتها خالية ، المفارش ،  
الكؤوس ، أدوات الطعام ، لكن ما من أحد ، رغم صدى عن المطاعم  
الخالية ، إذ أفضل الأماكن المزدحمة حتى الحظ البشر وأتبعين بوجود  
الخلق ، قال لى صاحب فندق بالبحر الأحمر إن أجمل ما يزين مطعمه  
هو الزبون ، الأماكن الخالية تثير الوحشة ، لكن انشغالى بهذه البنية  
زحمنى وأقصى ما اعتدته من خواطر . قامت بالخدمة على أكمل  
برنامج وأتم قاعدة وكانت تنطق بصوت مرتفع منغم .

«من فضلك . . .»

تقولها عندما تضع الطبق ، وعندما تتناوله فارغا ، وعندما تقدم

القائمة ، وعندما تصب النيذ وتقف منتظرة إيماءة الزبون بعد تذوقه ، حتى إذا ما بدرت علامة الرضا أو القبول تبدأ الصب . عندما تقدم قائمة السحاب خلال حافظة جلدية عتيقة ، عندما تتناول بطاقة الدفع أو النقود .

«من فضلك . . .»

كأنى أسمعها وقت تدوينى هذا ، بقدر ما تحويه من حيادية وحرص على المسافة الفاصلة وجدية تنتمى إلى أمانة الذكورة ، بقدر ما يبثه من ترغيب وتحذير ، كأنها تنبهه إلى طبيعة عملها الذى يستلزم الملائمة والمداعبة وإبداء الرقة أو اللين أحيانا ، لكن . . هذا كله عمل .  
أحذرا

أتفهم صرامة حضورها وسعيها ، وأدرك بحسى فيضها الأنوثى ، أتخيل لحظة ذوبان هذا القناع وسفور الرغبة وطرح الحميمية لشارها تفتحها ماذا يسفر عنها وقتئذ؟ لا يمكننى التنبؤ فلكل منهن عالمها ومخيالها ، وما نتصوره قد لا نلقاه .

فى المرة الأولى رأيتها وأصغيت إلى صاحبى يخبرنى أن المدام غائبة هذا اليوم ، وأن هذه البنية لا تعرفه . إنها مستجدة ، وأنه جاء هذا المطعم فى عام سبعة وأربعين أو ثمانية وأربعين ، كان سوق الهال فى أوجه وقتئذ ، وكانت المدام طفلة تحبو ، قلت ضاحكا .

«كذلك أنا . . .»

«من فضلك» .

لاحظت أناملها المحيطة بفنصن الكأس، تعدل وضعه لتصب النيذ الأحمر، جرة الاختبار، يرفعه صاحبي بتأن، بخبرة العارف المجرب الحق أننى لم أعرف ذواقة للطعام مثله، كذلك الشراب .

لم أعرف أنها ديورا إلا فى الزيارة الثالثة .

دائما أحتفظ بالعناوين الحميمة خلال أسفارى، لعلى أبلغ تلك الأماكن مرة أخرى، أو أزود بها صحبى الذين أحرص على معرفتهم وإطلاعهم على ما ألمت به، إذا لم أجد بطاقة مطبوعة أستفسر وأكتب العناوين فى كراسة صغيرة لأصحابها إلا خلال الترحال .  
غير أننى فى المرة الثانية مضيت متبعا للذاكرة، بعد عبورى الجسر الحديد، واجتيازى طريق ريفولى، ولجت الشارع العرضى الذى يتفرع منه الزقاق الصغير، عنه ألتقائهما تقع البناية .

«مطعم أدريان . . .»

قلت للبنية الهيفاء . التى فصلت أمرها فى تدوين آخر بعنوان لذلك لن أقبض فى الإخبار عنها . فالهدف المكان عينه، وبقدر الإمكان أحرص ألا أحميد خاصة عن اللواتى لم أعرفهن إلا بالنظر والحوار العابر وبقاء الرغبة هائمة، هذا قصدى هنا، أما صاحبتى هذه فأكتم أمرها مع وعدى بتفصيله فى تدوين مغاير .

وقفت بالباب مبتسما، وراء البار ديورا مبتسمة، والمدام هكذا قدرت، كنت اتصلت عبر الهاتف وطلبت منها حجز مكانين

للمصري، اتجهت مباشرة إليها صافحتها وكأني أعرفها منذ زمن بعيد، ضمنت مدة صاحبي إلى رصيدي الهين. قلت إنني صديق للدكتور مصطفى صفوان، عندئذ أو مأت ديورا مؤمنة، وإشارت إلى فوق، إلى حيث تناولنا الطعام في الصالة العلوية.

«صفوان . . السيد صفوان . .»

ثم التفتت إلى متسائلة .

«فيه حجز؟»

«أنا المصري . .»

تهللت، أشارت إلى المنضدة الصغيرة الملاصقة للبار تماما . في وسط الصالة المحدودة، أتقنت الخدمة وتقديم المودة، حاشني عن تتبعها وأقتفاء أديارها رفقتي لصاحبتى تلك، أهوى الإحاطة بالقوام المتقن من خلف ومن قدام، أهوى مكتملة الاستدارات، خاصة الأرداف، كانت سترتها المكونة من قطعتين تشي ولا تصرح، الجاكيت مشدود كأنه خيمة عند الصدر، والبنطلون رغم أنه ليس بضيق لكنه يوميء إلى ما خفى أو تعتمد هي إخفاءه عن الأنظار، كانت جديتها مثيرة للنزوع، حاضرة على الدفع، تعمدت إقصاء بصرى عنها خشية أن أعلق فيفتضح أمرى مع صاحبتى تلك، فللأنات حواس مرهفة، غير أنني بعد عودتى إلى غرفتى فى الفندق القديم واكتمال انفرادى وبدء مخاوفى الليلية فى الترحال أن أقضى وحيدا، أتأخر عن فتح الباب، يلجون الغرفة فيلاقون الصمت الأبدى، كيف يتصرفون عندئذ؟ كنت أتمد أن أترك إلى المنضدة المجاورة دفترا صغيرا يحوى

أرقام هواتفى ، يتصدرها هاتف السفارة فى باريس ، وأصدقائى ، كل من له صلة . كنت أعتذر عن قبول مفتاح شقة يمتلكها صاحب حميم عاد إلى القاهرة ليستقر بعد بلوغه سن التقاعد ، احتفظت أسرته بالسكن الذى كان عامرا بالذكريات عندى ولى عنه حديث طويل فى مجال آخر ، تلك الليلة بعد سفر صاحبتى إلى الجنوب حيث تقيم استحضرت ديورا ، فى تلك الليلة ، فى تلك الغرفة أدركت أن رؤيتى تبدلت . لم يكن استدعاء حضورها وجمال نحتها ورشاقة سعيها باعثا لأى حس أو محرك لأى رغبة . كأنى أتأمل كائنا مجردا من الضوء . لم يرتبط تأملى لحضورها بأى رد فعل ، فى أحوال مماثلة منذ سنوات كنت أقوم بالمخيلة على فعل كل ما لم أحققه فى الواقع ، ليس بالنسبة لأولئك اللواتى حاورتهن وتبادلت معهن الحديث ، إنما كنت أستدعى عابرات فى الطريق ، أو صالات المتاحف ، أو المسارح ، لا أعرف عنهن أى تفصيل ، لا اسم ولا عنوان لأى شىء . لكننى كنت أفيض بالطاقة وأمور بالرغبة ، فأرى من أعجبنى حضورها ، لأقبلها ، لأداعبها ، لأجردها على مهل ، أبلغ الشرق والغرب فى آن واحد ، لا أبرح . لكن ديورا لم تثر عندى أمرا ، معها بدأت أدرك هدوء حالى . غير أننى لم أبلغ بعد ذلك الحد الذى عرفه هذا الرجل المتقدم فى السن والذى حكى صاحبى عنه منذ ثلاثين عاما ، إذ عشق شابة تمت إليه بصلة ، فارق المجيء إلى الدنيا بينهما يقارب نصف القرن ، كان يجلس إليها بالساعات ، يتطلع صامتا معظم الوقت ، لا ينطق ، يتسرقق بمعان شتى ، بين الحين والحين يمد يده لتلمس أطرافها ، حوافها كان ذلك أقصى طموحه وغاية مأموله منها . فى المرة الثالثة قصدت بمفردى ، لم أتصل للحجز ، غير أن ديورا



تهللت عند رؤيتي ، أما المدام فتقدمتني إلى مكان خال بجوار النافذة ،  
جاءت بكأس من نبيذ الموسكا الذي فضلته المرتين السابقتين كمفتتح  
قالت :

«تحية من المطعم . . .» .

كانت ديورا تقف متطلعة ، مبتسمة ، عيناها نافذتان إلى كافة  
العيون التي تطلعت إليها أو تعلقت بها ، زمة الشفتين حازمة ، لكنها  
تبدي رسالة ما ، فتمنيت لو قبلت ابتهالي .



## جنان

عندما رأيتها أول مرة صدحت عندي أنغام قديمة لأغنية تقول  
كلماتها

«مرمر زمانى، يا زمانى مرمر...».

نحتها استوفزنى استنفرنى لم تكن مجرد أنثى بل رأيتها نصبا  
للاتساق وكمال النسب وتمام البث، واجهتها بلامح لا تسفر  
ولاتبىء. هذا شأنى جبلت عليه. فلکم حشت ما يجب النطق به،  
ولکم قمعت ردود فعلى إزاء ما استثارنى، خاصة الجمال، إما بسبب  
نجل أو خشية أمور لا أدرى تصاريفها أو منشأها.

عندما اتصلت بى عبر الهاتف لم أظن أنها هى، لا ينبئ الصوت  
بما وليج مجال بصرى عنه عبورها الباب إلى فراغ مكتبى، صافحتها،  
ما زلت أذكر ملامسة حواف مجرتها، وقوفها بمواجهتى، عيناها  
الواسعتان، مفرق نهديها البادى، رداؤها الجرىء، إذ كانت حوافه  
فوق ركبتيها عندما جلست غاصت فى المقعد الوثير، واجهت ساقيها  
الملتصقتين ببعضهما فى إحكام قاعدة متقنة لا تسمح لنظر فضولى  
بالعبور أبعد مما يبدو أو تسمح بظهوره.

الجلوس فى مواجهتها حتمى للتملى إذا سنحت الفرصة ولاحت  
الإمكانية ، لم ألزم مكانى العادى وراء المكتب ، قالت إنها هاجرت  
إلى الخارج بصحبة عائلتها أوائل الستينيات ، بعد أن طالتها قرارات  
التأميم ، أسرة مارونية تستقر فى مصر منذ القرن التاسع عشر ،  
أصولهم فى الشام ، خرجوا إلى فرنسا ، لكن والدها استقر بعد  
سنوات فى إيطاليا ، إنها تعمل فى مجلة متخصصة فى الأديان ، ذات  
صلة بالفاتيكان ، قلت إننى أحتفظ بكتاب يحمل اسما يتسمى إلى  
أسرتها ، أظنه شغل منصب الوزارة ، ربما وزارة الترميم فى  
الثلاثينيات أو الأربعينيات . قالت إنه عم والدها ، بعد لحظات  
صمت أتيح لى خلالها والاستزادة ، قالت إن هذا كله لا يعينها الآن .  
إنها تعمل لتعيش . المنافسة فى أوروبا حادة ، يجب أن تعمل وتعمل ،  
هدفها تأكيد نفسها لذلك تجرى وتجربى .

الحق أننى لم أعرفها فيما تلى ذلك إلا مسرعة ، دائما متعجلة ،  
خطوها فسيح ، متسارع ، لم أبدأ أى بادرة فى لقائنا الأول ، حرصت  
على تبادل العناوين وأرقام الهواتف ، عندما أصغى إلى رفرقة تنبئ  
بقبول ما ، حتى وإن بدا واهنا ، أحرص على التعلق بخيط ما ألا ينتهى  
كل شىء عند البداية ، صحبتها حتى باب المصعد ، لخطوها ترديد قوى  
وائق متعجل ، وعندما عدت إلى المكتب أغلقته حتى لا يزعجنى  
أحدهم بما يقطع على خلوتى بأثرها ، أحيانا أكتشف فى الإستعادة ما  
لم أراه عند المعاينة .

لون ردائها أبيض به مس من زرقة ، بشرتها عند حدود السمرة

والشقرة، زغب ذراعيها ذهبى، يتموج مع الضوء، ينبىء الكمين القصيرين باستدارتين مكتملتين للذراعين، الارتواء فى هذين الموضعين مؤثر، مفرق النهدين يؤدي إلى تكوينين قائمين بذاتهما، ليسا بحاجة إلى مشد، أما خصرها فمثير للعجب، إذ إنه وسط بين علوها وسفلها بقدر دقته ونحوه، بقدر استدارة ردفها واكتنازهما المعجز، لم يكن لديها تقشير أو إفراط. أما فخذيها فلهما مطلع وأقدام، يقوم هذا كله معتمداً على ساقين لا بد أنها تعرف جمالهما واتساقهما. كل ما فيها متكامل، لا يمكن التوقف عند جزء والاستكانة إليه.

كم مضى على حضورها الأول لحظة تدوينى هذا؟

ربما ما يقرب من عشرين عاماً، لم أدون لحظة ظهورها الأول، ظننت أننى لن أنسى، لكن تكوينها طغى وغطى على ما عداه، لا أستعيد اللقاء إلا من خلال انبهارى وتدفري بنظراتها وبثها الأثوى الغزير، لا أذكر الغرض الذى جاءت من أجله، اندثر هذا من حفظى، بالتأكيد موضوع ما يخص المجلة، إذ أرى إضمامة ساقها ومطلعها أرى أيضاً الدفتر المبسوط فوق حجرها، ويدها الممسكة بالقلم تدون ما أقول.

اللقاء التالى جرى فى روما، هنا يمكننى التحديد، كان ذلك عام تسعة وثمانين، كنت قادما من بولونيا إلى العاصمة الإيطالية، اتصلت بها عبر الهاتف، قالت إنها مسرورة جدا لحضورى، وأنها تدعونى إلى الغداء عند وصولى، التقيتها أمام فيلا بورجيزى، كنت ممتلئا بروية تمثال مدام ريكاميه الممددة فوق أريكة ممسكة تفاحة بيدها ومن

صدرها ينبت ثمر غضن ، عار ، كذلك صرتها . المادة واحدة . المرمر ،  
لكن النحات البشرى أودع مهارته ورؤيته فأثرى ونوع .

عندما جلست إلى جوارها فى العربة بدا انحسار التنورة القصيرة  
مدمرا ، مرهقا لى ، غير أننى حافظت وتجلدت قلت .  
«هل تعرفين عشق أبو نواس لجنان وما قاله فيها» .

قالت إنها قرأت لأبى نواس لكنها لم تسمع بجنان ، قلت إنه هام  
بها وأنشد فيها ومن أجلها أرق الأشعار ، وعندما أرسل إليها يطلب  
ودها ، قالت بازدرأ متعجبة : كيف أستجيب لهذا الكلب ؟ قلت  
ضاحكا إن هذا الكلب جعلنا نذكرها فى روما بعد أكثر من ألف سنة .

ابتسمت ، لكنها لم تعلق ، ثمة مسافة فاصلة ، لا أبدى أى همة  
لعبورها ، ولا تلوح منها إشارة فى المطعم ، جلسنا إلى مائدة دائرية  
شبه متجاورين شبه متواجهين ، ليس تجاورا تاما ولا مواجهة كاملة  
قلت إننى كرجل شرقى لم أعتد أن تدعونى سيدة فلتسمح لى ، قالت  
مبتسمة إن هذه الدعوة باسم المجلة وبتكليف من رئيس التحرير ، عند  
انصرافنا تقدمتنى فكدت أشهق لتناسق خطوها ، وامثال بنيانها . هل  
شعرت بنظراتى تتحسس استدارة رديها وتندس خلال المفرق وتسرح  
إلى الساقين القويتين التى لم أعرف مثل تناسقهما وارتداء امتدادهما  
عبر الفخذين ، بسرعة حدث حتى لا تلتفت بغتة فتمسك بى متلبسا ،  
عند انصرافنا . نفثت عما يراودنى عبر ضغطة متينة لحظة المصافحة ،  
شيعت عبرها ما أقدر على به من رغبة فى القربى وإعجاب بدقة  
الاقتران بين أجزاء الجسد المكتمل .

خلال ثلاث سنوات متوالية رأيتها في أصياف القاهرة، تهاقني  
تجبيء سرعة وتمضى سرعة، دائما تهرع حتى في ثباتها متأهبة. ثمة  
موعد هنا وموعد هناك إلى أن نزلت في شتاء السنة الرابعة روما،  
اتصلت بها ودعوتها إلى الغداء، طلبت منها أن تختار مطعما جيدا،  
لأننى أعبر روما بسرعة فلم يتح لى معرفة مطاعمها ومقاهيها مثل  
باريس التى أمضى فيها أوقاتا أطول، قالت إنها سوف تنتظرنى فى  
المكتب وسنذهب إلى الغداء من هناك. وصفت المكان بدقة، وصلت  
إليه بعربة أجرة. عندما دخلت المكتب كانت تقف شاهرة قوامها،  
منذ اللحظة الأولى أدركت اختلاف اللقاء من هيئتها، من طريقة  
نظرتها من المصافحة لا أعرف، لكن ثمة شىء قالت مخيرة مبتسمة.

«أصبحت مديرة...».

أعلنت التهيئة وأبدت سعادتى قالت إن جهدها عبر سنوات بدأ  
يؤتى ثماره، إذ قرر مجلس الإدارة تعيينها مديرة للتحجير، قالت إن  
هذا يعنى أسفارا أقل لكنها فى حاجة إلى الاستقرار، ابتها الآن فى  
الثالثة عشرة وابنها فى الحادية عشرة إنهما بحاجة إليها.

تقدمتنى، أغلقت الباب، قالت إننا سنذهب إلى مطعم قريب،  
أمامنا ساعتان. ثمة اجتماع فى الرابعة، مددت يدى.

«تفضلنى يا سيادة المدير...».

بعد ساعة إلا ربعا وبعد تناول السلطة وشرب كأسين من نبيذ  
الموسكا المناسب للمدخل، التقت عينانا فجأة، كنت أخفض نظراتى

وعندما توجهت صاعداً إليها وقع الاشتباك، تداخلت بصماتنا  
فأرسلت المدد عبر أصابعي التي أحاطت يدها، قلت لها . .

«تأخرت تلك اللحظة عدة سنوات لأصارك بما أشعر به . . .»

من سفلى إلى علو تطلعت بخضر عذراء تبوح لأول مرة، قالت .

«وأنا كمان . . .»

أبقيت راحتي محيطة بيدها، أصغيت إلى نبضها . سألتنى .

«متى؟»

قلت منذ لحظة لقائنا الأولى، كتبت طوال هذه السنوات .

«لماذا؟»

أبديت الحيرة، تطلعت إلى . مصدرها مغاير لكل المرات السابقة،  
ملامحها رقرقة، عيناها مستكينة، عند انصرافنا أحطت بخصرها،  
لكنها أشارت باتجاه مقر المجلة .

«لا تنس أنني أصبحت مديرة . . .»

قلت إن الرابعة لم تحن بعد . إننى فى حاجة إلى قضاء خمس دقائق  
بصحبتها . خاصة أننى سوف أسافر غدا، تقدمتنى . تقدمتنى .  
وعندما ولجت المكتب تبعتها، أغلقت الباب، ونفشت مكنونى فى  
إحاطة عسر إنهائها، رجيت أتشم رائحة جسدها الخاصة، هذا الجسد  
المتقن، ابتلعت رضابها .

«من فضلك . . من فضلك . . .»



أفلتت، أشارت إلى الباب، يمكن لأي محرر أو محررة أن يدخل فجأة، سترأس الاجتماع بعد دقائق لا تريد أن تبدو مضطربة، قعدت لحظات أحاول استعادة انتظام أنفاسي، أن أخرج هادئاً إلى الطريق. قبل أن أغادر هاتفتها اثنتي عشرة مرة، وقبل عودتي إلى مصر تحدثت إليها من فرنسا وهولندا. وعبر هذه المكالمات لم أخلُ بها قط، دائماً في عجلة، كأن شخصاً أو أشخاصاً يحيطون بها ينتظرون فراغها.

عندما جاءت إلى مصر بعد عامين دهشت لظجاجة نضارتها، ولكنني لاحظت أن شعرها الغزير أصبح أقل كثافة، ازدادت معها جراءة، لكنها تردد دائماً أنها لا تريد الأمر كما يتم في أوروبا، يقضى كل وطره وينصرف إلى حاله، إنها تتطلع إلى أجازة ليست أقل من أسبوع، عندئذ يفرق كل منا في الآخر، يقبل الصاحب على صاحبه متمهلاً واثقاً راغباً، تؤكد أنها لا تريد أن تكون مثلهم.

عبر سنوات متوالية حرصت على إبقاء الصلة، إذا نزلت بلداً بعيداً أرسل بطاقة، إذا حل رأس السنة أو عيد الفصح أو بداية الربيع أخط رسالة، بين الحين والحين أتصل. تصفني دهشة متعجلة باللهجة الشامية، تبادرنى . .

«كيفك . . .»

دائماً مسرعة، وكأنها على وشك الانتقال من حال إلى حال، من ثبات إلى حركة، أو من إقامة إلى رحيل. هل هذا ما ينسبها إلى الحمراء؟ لم أكن قادراً على تحديد عنصر الشبه رغم يقيني بوجوده،

تخبرني بأسفارها القريبة ، وضغوط العمل منذ أن أصبحت مديرة ،  
كأنها تعتذر مقدما عن الاستجابة إلى أى عرض للقاء ممكن .

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى ذروة خشية الناس من  
ركوب الطائرات ، سافرت إلى إيطاليا تلبية لارتباط قديم ، كان  
المفروض أن أنجه مباشرة إلى بولونيا لإلقاء محاضرة فى جامعتهما  
العريقة التى ترددت عليها مرتين من قبل ، غير أننى آثرت البقاء ليلة  
فى روما والسفر بالقطار فى اليوم التالى .

«تتكلم من إيطاليا؟» .

«من روما» .

قالت منفعلة إنها راغبة فى رؤيتى الآن وفورا ، قالت لن تتأخر إلا  
مسافة الطريق . تعمدت ألا أنتظرها فى بهو الفندق الصغير الذى لم  
أبدله منذ أن بدأت ترددى على العاصمة الإيطالية من حوالى ربع  
قرن ، عندما اتصل بى موظف الاستعلامات أصغيت إلى اسمها  
وكاننى لم أتوقعها ، طلبت منه أن يدلها على الغرفة .

عينها الفسيحتان فى مواجهتى ، ترتدى شرة تكشف مساحة من  
صدرها ، ما يزال لساقبيها المتانة المرمرية ، قابلتها بحال الرسوخ ،  
صافحتها وقبلتها بهدوء ، دعوتها إلى المقعد الوحيد المجاور للنافذة .  
جلست قريبا منها على حافة الفراش ، لم أشرع فى لمسها حتى عند  
تطلعى إليها ، بعد صمت استغرق لحیظة رصدت شيئا ما فى  
ملامحها ، أما شعرها فبدأ أقل كثافة ، مددت يدي لأمسك أصابعها ،

قبل أن أنطق منبها إلى مرور الأيام بسرعة ، قالت إنها سترتب كل شيء قريبا ، إنها تفكر في فينسيا .

«هل كنت هناك من قبل؟» .

«لمدة ليلتين فقط . . .» .

قالت إنها ستقضى أيامها بعد التقاعد هناك ، فتحت حقيبتها أخرجت جهاز تسجيل صغير . دفتر أوراق صغير وقلما ، قالت إنهم بصدد إصدار عدد خاص عن الإسلام ، إنها مستولة عن العدد بالكامل ، طبعاً الناس ينتظرون مادة غير عادية من مجلة متخصصة في الأديان ، إنها تهدف إلى تقديم صورة دقيقة ، غير معادية ، ولا تستجيب إلى اللحظة الراهنة . لديها عدة أسئلة ، قالت إنها تريد الإجابة يمكنني الاستفاضة كما أشاء ، سيكون الحوار الرئيسي في العدد .

في هذه اللحظة انتبهت إلى رائحتها الخاصة ، تسمتها من قبل عندما حاولت ضمها في المكتب ، الآن أكثر حدة ، نفاذة ، بالنسبة لي غير متقبلة ، تحول بيني وبينها ، للروائح والأنسام عندي شأن .

«تفضلني . . .» .

ثمة شيء في ملامحها لم أعهدده ، لم أقف عليه من قبل . وجهها مفلطح أكثر؛ ربما ، لكن ثمة اختلال في النسب التي أعرفها . بدأت أصغى ، وعندما شرعت في الإجابة حرصت ألا ينعكس ما يدور عندي على ملامحي . . .

جمال الغيطاني - يونيو ٢٠٠٢



## الفهرس

٥	مصدرها .....
١٧	رشحة الآتية .....
٢٥	رشحة المدبرة .....
٣٧	رشحة الرانية .....
٧٣	تسابع .....
٧٧	رشحة الصادة .....
٩٩	رشحة الحميرا .....
١٠٧	رشحات عابرة .. تانيا .....
١١١	جانكا .....
١١٩	آتيت .....
١٢٩	ديبورا .....
١٤٥	جنان .....

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٥٤٥  
التقديم الدولي 7 - 0929 - 09 - 977

### مطابع الشروقة

القاهرة : ٨ شارع سيدي صبريه للصري - ت ٤٠٢٢٢٩٩ - فاكس: ٤٠٢٧٥٦٧ (٠٢)  
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)







To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)